الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة عباس لغرور – خنشلة-

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة العربية و آدابها

الشعبة: لغة و أدب عربي

التخصص: آداب أجنبية و أدب مقارن

الرحلة و صورة الآخر:

قراءات في نصوص الرحالة الأوروبيين إلى العالم العربي

- الجزائر و مصر أنموذجا -

بحث مقدم لقسم اللغة العربية و آدابها لاستكمال مواد شهادة الماستر

إعداد الطالب:

شفيق بوطرفة

إشراف الأستاذ:

د. عمرو عيلان

لجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ. حنان شرفي	أستاذ مساعد .أ	جامعة عباس لغرور - خنشلة	رئيسا
أ. د. عمروعيلان	أستاذ التعليم العالي	جامعة عباس لغرور - خنشلة	مشرفا و مقررا
أ. سارة مسعودي	أستاذ مساعد . أ	جامعة عباس لغرور - خنشلة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2015/2014 م

الموافق لـ: 1436/1435هـ

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

صدق الله العظيم

شكر و عرفان

الحمد لله الذي أنار ل ي درب العلم والمعرفة وأعان ني على أداء هذا الواجب و وفقني إلى انجاز هذا العمل.

أتقدم بجزيل الشكر و عظيم الامتنان إلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد على انجاز هذا العمل وفي تذليل ما واجهته من صعوبات، و أخص بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور الفاضل **عمرو عيلان** الذي أشرف على هذا البحث، و أمده بكل ما هو قيم بأفكاره و رعايته و توجيهاته لي و عمله المستمر معي طلية الموسم الجامعي و تحمله عناء تصويب هذا العمل حتى استوى.

فشكراً لك على عطائك الدائم.

الإهـــــــــــــداء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

أهدي هذا العمل:

إلى وطني المفدى... " **الجـــــزائر**".

إلى معنى الحب و الحنان والتفاني...

إلى بسمة الحياة وسر الوجود....

إلى التي ربت و سهرت الليالي لأجلي، وأعانتني بصلواتها ودعواتها الصادقة...

إلى أغلى إنسانة في هذا الوجود **أمـــي الحبـــيبة** حفظها الله من كل مكروه و رعاها...

إلى من أحمل اسمه بكل افتخار...

إلى من كلله الله بالهيبة والوقار...

إلى من عمل بكد في سبيلي وعلمني معنى الكفاح وأوصلني إلى ما أنا عليه...

إلى أبـــى الكـــريم أدامه الله لي.

إلى إخوتي: **يوسف، العيد** و أخواتي: **ليندة، آيـــة**. أدامهم الله لي...

إلى من آزرتني في كل خطوة، و تكبدت معي عناء هذا البحث...

إلى رفيقة دربي، و بلسم جراحي... إلى زوجتي العزيزة: **عائـــشة** أدامها الله لي...

إلى أمجـــد و **هيام ألاء الرحمان** اللذين لم يريا النور بعد؛ أهدي لكما هذا البحث...

إلى كل من **علمني حرفا...**

إلى كل الذين **آمنوا بالعلم...**

إلى كل **أصدقائي و معارفي...**

شفيـــق بوطرفة... ☺

مقدمة

يعد أدب الرحلة لونا من الألوان الأدبية التي تشكل أهم روافد الآداب العالمية و الدراسات المقارنة نظرا لتلك المشاهد و الصور المتنوعة التي يعكف الرحالة على نقلها من خلال رحلتهم التي تضمر بين ثناياها الكثير من الأبعاد و الأهداف انطلاقا من مرجعيات ثقافية و إيديولوجية للأنا، حيث كان للنص الرحلي عيوننا مفتوحة على مختلف مظاهر الحياة الثقافية، و الاجتماعية، و الدينية ، و كل ما يساهم في تشكيل خصوصيته. فقد شهد الشرق (المشرق و المغرب) -باعتباره آخر نقيضا للغرب - على مر القرون توافد الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين حظيت نصوصهم الرحلية بقدر كبير من الشهرة، و الاهتمام لأهمية المعلومات، و المعارف الواردة في هذه النصوص المتنوعة الإيديولوجيات.

و قد اخترت هذا الموضوع الموسوم بـــ: **الرحلة و صورة الآخر: قراءات في نصوص الرحالة الأوروبيين إلى العالم العربي" مصر و الجزائر أنموذجا".** نظرا للأهمية التي اكتسبها بين النقاد، و المفكرين فضلا عن أسباب أخرى تمثلت في:

- شغفي بقراءة النص الرحلي لطرافته.

- قلة الدراسات المتعلقة بصورة الآخر في النص الرحلي الأوروبي مقارنة بدراسة صورة الآخر الغربي في النصوص الرحلية العربية.

- محاولة استجلاء صورة الشرق في كتابات الرحالة الأوربيين، و الكشف عن المرتكزات الأساسية التي تقوم عليها نظرة الأنا الأوروبي للآخر العربي .

و هذا ما يدفعني إلى طرح العديد من التساؤلات لعل أهمها:

- كيف تشكّلت صورة الآخر العربي في المشرق و المغرب عامة و خصوصا مصر و الجزائر في النص الرحلي الأوروبي؟

- ما هي مرجعيات تشكيل صورة الآخر العربي في كتابات الأنا الأوربي؟

و للإجابة على الإشكالية التي يطرحها البحث تم الاعتماد على المنهج الموضوعاتي لما له من آليات من شأنها الوقوف عند السياقات التاريخية و الاجتماعية ... لهذه النصوص كما تم الاستعانة بآليات النقد الثقافي قصد الكشف عن بعض الأنساق الثقافية المضمرة في بين ثنايا النص.

و من أجل تحقيق أهداف هذه الدراسة اهتديت إلى الخطة التالية حيث قسمت البحث إلى مدخل نظري، و فصلين تطبيقيين مسبوقين بمقدمة، و متبوعين خاتمة و قد كانت كالآتي:

- **المدخل:** و قد عنونته بـــ: " **الصورولوجيا و الرحـــــــلة** "

سأبحث فيه عن الصورة في الأدب المقارن من حيث: البدايات الأولى لدراسة صورة الآخر في الأدب المقارن، ثم مفهومها، و كذا وسائل تلقي صورة الآخر و صولا إلى حالات فهم الآخر، و قد تم التركيز على كل هذه الجوانب لما لها من فضل في إنارة رؤية القارئ و توجيهه نحو فهم طبيعة هذه الدراسة و أهدافها.

- **الفصل الأول:** و عنونته بـــ : **المشرق في مرآة الرحالة الأوروبيين –مصر أنموذجا–**

سأرصد فيه صورة المشرق في عيون الرحالة الأوروبيين لتكون البداية بتسليط الضوء على أهم الرحالة الذين زاروا المشرق العربي كـــ: شبه الجزيرة العربية

و الشام و بيت المقدس... ثم نقل بعض الصور التي وردت في نصوص هؤلاء الرحالة. ليتم التركيز بعد ذلك على صورة مصر كأنموذج للدراسة.

- **الفصل الثاني:** و قد عنونته بـــ: **المغرب في مرآة الرحالة الأوروبيين - الجزائر أنموذجا**- سأتناول في هذا الفصل أهم الرحالة الذين زاروا المغرب العربي، و أبرز بعض الصور التي تجلى فيها الآخر في كتابات الأنا الأوروبي الرحلية، بالتركيز على صورة الجزائر كأنموذج للدراسة.

- **الخاتمة:** سأجيب فيها على أهم إشكاليات هذا البحث.

و لتحقيق أهداف هذه الدراسة فقد اتكئ البحث على مجموعة من الدراسات السابقة التي ساعدتني كثيرا في المضي قدما مثل :" **تائهون في صحراء الإسلام: صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة و المستشرقين الفرنسيين**" للدكتورة مي عبد الكريم محمود. و كتاب " **الشرق الخيالي و رؤية الآخر: صورة الشرق في المخيال الغربي الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط**" لـــ : تيبري هينتش ترجمته مي عبد الكريم محمود. " **الرحلة إلى الشرق: رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر**" لـــ: بيير جوردا ترجمة علي بدر و مي الكريم محمود." **أساطير أوروبا عن الشرق**" لـــ: رنا قباني، "**صورة الشرق لدى هيرمان هيسه**" لماجدة حمود.

و قد واجهتني مجموعة من الصعوبات تمثلت أساسا في صعوبة الحصول على بعض المراجع، و المصادر التي تخدم جوهر البحث خصوصا ما تعلق ببعض النصوص الرحلية الأوروبية المهمة كما تجدر الإشارة إلى ندرة ترجمات النصوص الرحلية المفيدة كالألمانية على سبيل المثال. و التي يعد فهمها أو ترجمتها أمرا بالغا في الصعوبة. و لست أزعم أنني أحطت بجميع جوانب هذا الموضوع فلكل أمر إذا ما تم

نقصان و حسبي الاجتهاد و إنارة الزوايا المعتمة من هذا البحث علها تفتح مساءلات نقدية أخرى للقارئ.

و أخيرا أشكر الله على تمام هذا البحث كما أوتجه بجزيل الشكر و خالص الامتنان للأستاذ المشرف الذي ساعدنا في انجاز هذا البحث.

و الشكر موصول للجنة المناقشة التي تتحمل مشقة قراءة هذا البحث و تصويبه. و لله الشكر من قبل و من بعد.

2015.05.16

المدخل

الصورولوجيا و الرحـــلة

- أولا: البدايات الأولى لدراسة صورة الآخر في الأدب المقارن
- ثانيا: مفهوم الصورة في الأدب المقارن
- ثالثا: حالات تصوير الآخر
- رابعا: وسائل تلقي صورة الآخر

تمهيد:

نال موضوع الصورولوجيا اهتمام الباحثين ، و المقارنين باعتبارها ميداننا خصبا من ميادين الأدب المقارن، إذ عكف الدارسون على استنطاق مختلف الدلالات و الحمولات الثقافية المتوارية خلف أنماطها، و أشكالها عبر مصادر عديدة أهمها الرحلة التي تعد وسيلة من وسائل تلقي صورة الآخر إذ يتفق أغلب الباحثين، و النقاد أن التربة الخصبة لعلم الصورولوجيا هي أدب الرحلة، و الذي يمكن عده الجنس الأدبي الأول الذي مهد لولادة الصوراتية، حيث تعد الرحلات أهم منابع استلهام الصورة فلا تخلو رحلة من تصور حول ماهية الآخر، و هذا ما يعني أن « للمهاجرين، و الرحالة من الكتاب فضل كبير في تكوين هذه الأفكار. فهم الذين ينقلون إلى أممهم ، و يصفون في أدبهم صور ما شاهدوا في البلاد الأخرى.»[1]، فانتقال الرحالة إلى البلدان الأخرى مكنهم من بيان موقفهم من البلاد التي رأوها، و من هنا أصبحت الحاجة ملحة إلى تقصي صورة الأنا لدى الآخر بعد أن عبدت كل طرق التواصل عبر عديد المنافذ، و تزايدت أواصر الاتصال بين هذه الأمم ، لذلك زاد اهتمام دارسي الأدب المقارن بموضوع الصورة الذي يعد ركيزة أساسية من ركائز الدرس المقارن فلا يخلو بحث مقارن من دراسة لصورة الآخر في مختلف الآداب القومية نظرا لتلك الدلالات المهمة التي تحويها هذه الصور من معلومات كثيرة، و عديدة عن شعب من الشعوب أو أمة من الأمم .

و هذا ما يؤكده محمد غنيمي هلال في كتابه الأدب المقارن « فدراسة صورة شعب ما في أدب شعب آخر إنما تدل على وعي للذات والعالم، كما تسهم في تعزيز التفاهم بين الشعوب، وتساعد على نشر لواء الإنسانية، لتسير الشعوب وراءه إخواناً وبذلك تتهيأ خير السبل للتعاون الحق، والتفاهم الصادق بين الشعوب عن طريق التعرف على الاتجاهات العامة، والميول الفكرية المشتركة للعقل البشري»[2] فالذات لا تعي ذاتها إلا بوعيها بالآخر الذي يعكس جزء من سماتها، و كينونتها، و هذا حتم على الذات الخوض في محاولات

1. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط3،1983، ص: 420
2. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط9،1987، ص: 346

عدة تهدف في مجملها إلى محاولة فك طلاسمه من خلال التعرف على ثقافته ، و فكره و مختلف خباياه و مميزاته. و هذا ما يجعلنا أمام مسائلات نقدية تطرح نفسها كالآتي:

1. كيف تشكلت الملامح الأولى التي توحي بتوجه الدرس المقارن إلى العناية بدراسة صورة الآخر؟
2. ما هي أهم وسائط تلقي الآخر؟
3. إلى أي مدى ساهمت الرحلة في تجسيد صورة الآخر؟

أولا: البدايات الأولى لدراسة صورة الآخر في الأدب المقارن:

يستلزم الحديث عن صور ة الآخر في الأدب المقارن تتبع بداياتها الأولى أو على الأقل محاولة الكشف عن العلامات الأولى لما يسمى اليوم بـــ: "الصوراتية" أو"الصورولوجيا" "**l' imagologie**". هذا العلم الذي اتضحت معالمه الأولى في بدايات القرن التاسع عشر مع الأديبة الفرنسية "**مدام دو ستيل Madame de staël** " التي رسمت أبعاد هذا العلم في كتابها الموسوم بـــ: " **ألمانيا . 1811م** " و هي تنقل صورة الشعب الألماني بكل موضوعية و صدق واصفة إياه ــ «بالطيبة والاستقامة والصدق»[1] فالمتمعن في رحلة السيدة " **دي ستيل Madame de staël** " سيلاحظ حتما ذلك التباين في الآراء فصورة الألمان لدى الفرنسيين تختلف تماما عما جاء في كتابها الذي أبدت فيه إعجابها الشديد بألمانيا و بسحر طبيعتها وصولا إلى أدب ألمانيا الرفيع فالكاتبة تقدم تصحيحا مخالفا لتلك الصور السلبية التي ترسخت في أذهان الفرنسيين ، كيف لا و هي تكشف من خلال رحلتها هذه عن كل الجوانب الإيجابية التي يتمتع بها الشعب الألماني.

1. ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2000، ص: 110

و لعل هذا الكتاب قد شكل نقطة انطلاق الدراسات حول صورة الآخر طبعا دون أن نغفل باقي الرحلات كانت تهدف إلى البحث عن « صورة الإنسان الأبدي وجذوره، و صراعاته، و النتائج التي اكتسبها،... مولعين بالإطلاع على الدين و التاريخ،... وهكذا كانت الرحلات تتم طبقا إلى الرؤية الرومانسية.»[1]

هذا يعني أن أهم مبادئ التيار الرومانسي استكشاف الآخر ، و الاهتمام بكل تفاصيله في محاولة لاستقراء هذه التفاصيل في عديد من الكتابات التي تعد « دراسة صورة الأجنبي و تجلياته ... لقد بدأت هذه الدراسة مع **جان –ماري كاريه** ، ثم أخذها **ماريو– فرانسوا غويار** و دافع عنها و نشرها في فصله الأخير من كتابه الصغير ضمن سلسلة(كوسيج– ماذا أعرف) عام 1951: "الأجنبي كما نراه" .» 2 و قد تلتها مجموعة الرسائل التي تنضوي تحت عنوان الصورة و التي نذكر منها: « رسالة **أندريه منشو** و رسالة **رينيه شوفال** الموسومة بـــ: (ألمانيا و الحرب P.U.F،1943)، و رسالة **ميشال كادو** (صورة روسا في الحياة العقلية الفرنسية– 1829–1856– فايارد، 1967)... » [3] و غيرها من الرسائل ، و هذا ما يعني أن الإرهاصات الأولى لظهور الصوراتية تعود إلى الغرب الذين كانوا السباقين في تصوير الأخر بكل تفاصيله من خلال مجموعة من الأجناس الأدبية التي من شأنها أن تقف عند كل ما يتعلق بالآخر من ثقافة ، و ديانة و عادات، و تقاليد، أو حتى كرغبة ملحة لفك طلاسم مصطلح سحر الشرق فزار هؤلاء البلاد العربية وحتى غير العربية و كتبوا عنها في آدابهم ، و مختلف إبداعاتهم لترسم ملامح الآخر في صور متنوعة تباينت بين الذاتية و الموضوعية.

---

1. مي عبد الكريم محمود، تائهون في صحراء الإسلام: صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة و المستشرقين الفرنسيين، الأهالي للتوزيع و النشر، دمشق، ط 1، 2003، ص: 08

2. دانييل هنري باجو، الأدب المقارن، تر: غسان السيد، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 1997، ص: 89

3. المرجع نفسه، ص: 90.89

ثانيا: مفهوم الصورة في الأدب المقارن:

لقد تعددت مفاهيم الصورة لدى الباحثين و تنوعت حتى أضحى تحديد م فهومها أمرا عسيرا إلا أننا سنحاول أن نوجز أهم هذه المفاهيم في بحثنا هذا لتكون البداية بتعريف "**دانيال هينيري باجو** .**Daniel-Henri Pageaux** ": « كل صور تنبثق عن إحساس مهما كان ضئيلا (بالأنا) بالمقارنة مع الآخر، (و بـــ: هنا) بالمقارنة مع مكان آخر من الواقع الثقافي.»[1] فالصورة حسب "**باجو**" تعني أن طبيعة التواصل بين الأنا ، و الآخر تفرض صورة عن كل طرف طبعا في إطار ثقافي محدد بمعنى أن هذا الفضاء الذي يجمع الأنا و الآخر يستدعي جملا من التصورات التي عادة ما تكون بدياتها من ذواتنا وصولا إلى الآخر.

كما يعرف البعض علم الصورة **(Imagologie)** بأنه « البحث عن صورة الآخر الأجنبي في النصّ الأدبي»[2] بمعنى أن عملية البحث عن صورة الآخر تقودنا إلى الإطلاع في ثنايا النص الأدبي بغية محاولة فهم كنهها أو حتى محاورة تفاصيلها المترامية الأطراف، و التي يمكن تفسيرها بـــ:«عرض لواقع ثقافي يستطيع من خلالها الفرد أو الجماعة الذين شكلوها (أو الذين يتقاسمونها أو ينشرونها)أن يكتشفوا أو يترجموا الفضاء الثقافي أو الإيديولوجي الذي يقعون ضمنه» [3] في حين نجد أن الصورة عند "**ماجدة حمود**" « هي تعبير أدبي مستمد من نظامين ثقافيين ينتميان إلى مكانين مختلفين أي المكان الذي نشأت فيه الصورة، أي بلد الناظر ، و المكان الذي تقدمه الصورة أي البلد

1. المرجع السابق، ص:91
2. هادي نظري منظم و آخرون، صورة ما ياكوفسكي في شعر عبد الوهاب البياتي و و شيركو بيكهس، إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)، السنة الثانية – العدد الثامن– 2012
3. بيير برونيل و آخرون ، الوجيز في الأدب المقارن، تر: غسان السيد، مكتبة الأسد، دمشق، دط، 1999 ص: 147

المنظور إليه»[1] يتبين لنا من خلال هذا المفهوم أن الصورة تبنى انطلاقا من بيئة ثقافية و مكانية مغايرة لبيئة و مكان تواجد الأنا، و من ثم تتشكل صورة الأنا لدى الآخر. فالصورة إذا تستدعي اجتماع الأنا و الأخر كونهما عنصرين مهمين إذ «... تنشأ عن وعي، مهما كان صغيرا بالأنا بالمقارنة مع الآخر، و بهنا بالمقارنة مع مكان آخر»[2]

فالوعي مهما كانت درجته موجود لدى المصور مثلما هو الحال بالنسبة للمكان الذي تبنى عليه الصورة. أما "**سعيد بنسعيد العلوي**" فإنه يفسر الصورة بقوله: «... و الفاحص متى نظر في الصورة التي ترسمها الذات لآخر، فإنه يتبين له أن تلك الصورة مزيج غريب و غير متجانس من العواطف و الأحكام. » [3]يتبين لنا من خلال هذا المفهوم أن الصورة التي ترسمها الذات عن الآخر قد تسلك أحد الاتجاهين: السلبي أو الإيجابي حسب الانطباع الذي تشكل في متخيل الأنا عن الآخر .

يرى "**غنيمي هلال**" أن الصورة: «...و ترتسم من كل ذلك أجزاء الصورة الأدبية للبلاد و الشعوب الأجنبية، و قد تكون هذه الصورة مستوفية الأجزاء، فيما إذا تحدث الكاتب عن المظاهر المختلفة للبلد الآخر، من مناظره الطبيعية، و عادات و تقاليد و من طبائع و نظم... و قد تكون الصورة التي رسمها كتاب بلد ما للبلد الآخر ناقصة مبتورة.»[4] يبدو أن تشكيل صورة عن الآخر يختلف حسب موقع الناظر إليه فقد يكون مجرد انطباع مبتور يستند إلى رؤى سطحية ، كما قد تكون صورة مركزة ذات انطلاقة محكمة لها الكثير من المرجعيات التي توحي بأهمية الآخر و وجوب تقصي كل الجوانب

---

1. ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،2010، ص: 10
2. بيير برونيل و آخرون ، الوجيز في الأدب المقارن، تر: غسان السيد، ص: 147
3. سعيد بنسعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، رؤية للنشر و التوزيع القاهرة، ط1، 2012، ص: 15
4. غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط3، ص:421

المتعلقة به كـــالديانة، العادات و التقاليد، و كذا طبائعه و أهم نشاطاته الثقافية ، و الأدبية و حتى ما تعلق ببيئته.

تربط "**أمينة رشيد**" مفهوم الصورة بالمصلحة المباشرة حيث ترى أن الصورة «كانت دائما لدى الشعوب صورة ما للآخر تتسم ببعض السطحية ، و المصلحة المباشرة...و الصورة تختلف من زمن إلى آخر. » [1] ما يعني أن صورة الآخر موجودة في أذهان كل الشعوب إلا أنها تتراوح بين السطحية و المصلحة أحياننا و نقصد بالأولى تلك الانطباعات الأولية عن شعب ما انطلاقا من قناعات ذاتية تستند إلى خطابات متفرقة و هذا هو حال الخطابات الأولى التي اشتغلت على الصورة بعيدا عن جوهرها لأن «صورة الآخر ليست بالبساطة، و السطحية التي كانت تميزها في بداية الدراسة المقارنة. فوضعية الآخر تتطلب دراسات بينية تجميع بين التاريخ ، و الانتربولوجيا بمعنى دراسة الثقافات المختلفة و تحليل الخطاب. »[2]

يتضح لنا أن الصورة لابد أن لا تتسم بالسطحية، فتصوير الآخر يستدعي العديد من التفاصيل المتعلقة بتاريخه، وثقافته، و تفسير لكل خطاباته ــ وكل ما يمت له بصلة_ حتى تكون الصورة شبه كاملة نظرا لتعدد أساليب الخطاب و تنوع الأجناس الأدبية التي من شأنها الوقوف على كل صغيرة و كبيرة تتعلق بصورة الآخر.

ثالثا: حالات تصوير الآخر:

أشرنا إلى صورة الآخر الواردة في مختلف الرحلات و الترجمات و كذا كتابات المستشرقين، ما يعني بالضرورة الحديث عن ذلك التنوع و التباين في هذه الصور فتشكيل

1.أمينة رشيد، الأدب المقارن و الدراسات المعاصرة لنظرية الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 2011، ص: 132

2. المرجع نفسه، ص: 139

الأنا صورة عن الآخر يقوم أساسا على تنوع الثقافات و الخصوصيات التاريخية و كذا الفكرية، فلكل كاتب توجهاته و أهدافه الخاصة و هذا ما يعني تعدد التأويلات و القراءات التي تصاحب فهم الآخر. إلا أننا يمكن أن نجمل أهم هذه القراءات في قراءتين أساسيتين:

أ. **القراءة الإيجابية:**

تعرف بالقراءة الإيجابية بحيث نجد أنّ الأنا المبدعة قد اتسمت بروح الموضوعية و الصدق أثناء نقلها لهذه الصور، كما أنها اتسمت بالحياد بعد أن حاول المبدع التحرر من كل الأنساق الثقافية، والتاريخية،... و أخذ يكتب كل ما يشاهده بكل صدق و موضوعية ليكشف لنا واقع الفرد و الجماعة من خلال ترجمته لكل تلك الأحداث التي عاينها بلغة الأديب المبدع، و القاص المشوق، و الشاعر المغني... فكانت أجمل لوحة رسمت بيد فنان مبدع يقدم « الصورة عبر رؤية واعية، تعتمد العلم، و تصغي لنبض الإنسان، و بذلك تستطيع أن تنظر للآخر باعتباره ندا للذات، فينتفي الهوس و الانبهار (الاستعارة من الآخر) كما ينتفي الرهاب(الذي ينفي الآخر و يكاد يصل الأمر حد افتراض الموت الرمزي له). »[1] هذا يعني أن الخوض في تقديم صورة إيجابية عن الآخر يتطلب الكثير من الموضوعية و الاستقلالية في رصد كل التأويلات التي تنبع من هذه الذات المبدعة فضلا عن ذلك لابد من النضج الفكري و الثقافي و الإنساني حتى نتمكن من تجنب النزعة الذاتية التي تفرض في كثير من الأحيان سياقات منافية لحقيقة الآخر و من هنا أصبح محتما على الذات المصورة التسامح مع الآخر و العيش معه في عالم واحد مبني على الحوار و التواصل الدائم، بعيدا عن كل النوازع السلبية للنفس البشرية. مثلما فعلت الأديبة الفرنسية "**مدام دي ستيل .Madame de staël** " عندما نقلت

1. ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي ، ص: 28

صورة صادقة عن الشعب الألماني الذي أساء الفرنسيون فهمه. فجاء كتابها " **ألمـــانيـــا** " لكي يصحح تلك الصورة المشوهة التي بنيت على أحكام مسبقة بعيدة كل البعد عن الواقع و الحقيقة.

ب.القراءة السلبية:

يمكن تسميتها أيضا بالنظرة السلبية، و التي عادة ما تكون مرجعياتها أحكام مسبقة و قبلية عن الآخر ، فهي أحكام متوارثة و متناقلة من جيل إلى آخر، بعد أن سيطرت على« الأنا المبدعة أو الدارسة مشاعر التفوق على الآخر، و غالبا ما تعززها العلاقات العدائية مع الآخر عبر التاريخ، مما يؤدي إلى تشكيل صورة سلبية عن الآخر(المعادي).»[1]فالنظرة الدونية للآخر إنما تنبع عن تاريخ حافل بالحروب ، و الأحقاد و العداء بين الأنا و الآخر، ما يعني تجنيد كل الأجناس الأدبية في رسم هذه الصورة السلبية و كذا الترويج لها، بعيدا عن الحقيقة، بل امتثالا منهم للنزعة الدينية، و كل معاني التفوق و الاحتقار للآخر ، و هذا ما يبدو جليا في أغنية رولان، و مسرحية "**القديس نيكولا**" «حيث ظهر المسلمون في الأدب الفرنسي: ملاحمه، مسرحياته، بصورة وثنيين لا أخلاق لهم، سرعان ما ينهزمون أمام أبطال المسيحية، فيرتدون عن دينهم...» [2] فقد شوهت أوروبا بحقدها و تعصبها صورة المسلمين، و وصفتهم بأبشع الصور التي لم تكن موجودة آنذاك، فهم ينطلقون من نظرتهم الدونية للعالم الآخر غير الأوروبي و هذا الآخر سيظل دوما في نظرهم في مرتبة دونية، لا ثقافة و لا هوية له، وجوده لا يختلف عن عدمه فالمجال هنا لا يتسع إلا للذات المبدعة التي تتحكم في دور " الآخر" كيفما تشاء

1. المرجع السابق، ص: 27
2. غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط3، ص: 422

كأحجار الشطرنج فتصفه كما تشاء و تصوره وفقا لفكر، و ثقافة الأنا المبدعة التي لم تكتف بالاستسلام للمؤثرات التاريخية في الموروث الغربي، و إنما سعت إلى تأكيده. فضلا عن ذلك « فالصورة رؤية فردية أو جماعية، تمتزج فيها عناصر فكرية، و عاطفية في الوقت نفسه، موضوعية و ذاتية فلا يمكن لأي أجنبي أن يرى بلدا كما يحلو لسكانه الأصليين أن يُرى.»[1]

ستظل هذه الصورة مجرد رؤية فردية خاضعة لمجموعة من العناصر الفكرية و الثقافية مما يجعلها في كثير من الأحيان تتجسد لدى الكثير من المبدعين في شكل صورة تحقيرية للآخر،«إن الصورة التحقيرية عن الآخر موجودة فعلا، و تأخذ هذه الصورة، و قبل كل شيء شكل الهرطقة *.» [2]على الرغم ذلك التباين بين هذه الصور النمطية التي رسمت للآخر العربي أو غير العربي، فإننا لا يمكن أن ننكر أنها جديرة بالأهمية و الدراسة، فالمبدع ينطلق في إبداع صورة الآخر انطلاقا من تجربة شخصية لها سياقات، و آفاق تختلف جذريا عن أفق أفكار حضارة الشعوب، و ثقافته التي أعاد المبدع تصويرها .

---

1. بير برونيل وآخرون : ما الأدب المقارن، تر: عبد المجيد حنون وآخرون ، منشورات مخبر الأدب العام و المقارن جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر،2005، ص: 108

*. **الهرطقة:** ويطلق عليها أيضا الزندقة بالإنجليزية **(heretic):**هي تغير في عقيدة أو منظومة معتقدات مستقرة، وخاصة الدين بإدخال معتقدات جديدة عليها أو إنكار أجزاء أساسية منها بما يجعلها بعد التغير غير متوافقة مع المعتقد المبدئي الذي نشأت فيه هذه الهرطقة. **عن ويكبيديا.**

2. تييري هينتش، الشرق الخيالي و رؤية الآخر: صورة الشرق في المخيال الغربي الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط، تر: مي عبد الكريم محمود، دار المدى للثقافة و النشر، ط1،2006، ص:88

رابعا: وسائل تلقي صورة الآخر:

إن الإيمان بوجود الآخر يعني بالضرورة الإيمان بالتنوع ، و الاختلاف فالاختلافات القائمة بين الأجناس البشرية كثيرة بل لا تعد ، و لا تحصى، و لعل هذا ما خلق فضولا كبيرا حول ماهية الآخر بكل مكوناته، و تفاصيله ، فتقاطرت الشعوب من مختلف أرجاء العالم على بعضها البعض في «علاقات متبادلة بين الشعوب: تبادل السلع و الأفكار، و تبادل القيم و الأشكال» [1] فاقترب الأنا من الآخر ، و تعددت قنوات الاتصال و انتشرت الأفكار و القيم متجاوزة كل حدودها الجغرافية، و من هنا بدأ الأنا يبحث في ثقافة و حضارة الآخر و خصوصية التي تختلف كثيرا عن الأنا.

و قد حاول الأنا استنادا إلى مجموعة من المرجعيات رسم صورة تقريبية للآخر الذي تميز ، و اختلف عنه ومعه كثيرا.فأخذ الأنا يبحث عن مميزاته و صفاته بل حتى خصائصه، فطرح الكثير من الأسئلة التي تعددت ، و تنوعت الإجابات عليها، فنقاط الاختلاف بين الطرفين كثيرة، لهذا فقد استنجد الأنا بالكثير من الأجناس الأدبية التي ساعدته كثيرا على فك طلاسم الآخر ، فأخذ يقرأ كتاباته، و يشاهد لوحاته، و يتعرف على مختلف طقوسه، عاداته، تقاليده، بل حتى اهتماماته، حتى أنه سافر إليه ، و تعرف عليه عن قرب فعاش معه ليله و نهاره، و هو يتقصى كل تفاصيله.

فقد التقى الأنا بالآخر و تأثر كل واحد منهما بالآخر، و تلاقحت الثقافات و تنوعت بؤر الاختلاف، و من هنا بدأت الملامح الأولى للآخر تتشكل في عديد من الوسائط، و المنابع التي ساعدت على كشف غماره و الوقوف عند أهم صفاته، تصرفاته مميزاته، و كل ما يتعلق به ، و بوجوده الحضاري، الثقافي،... و لعل هذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن أهم الوسائط و الوسائل التي ساعدت على تلقي صورة الآخر لدى الأنا؟

---

1. أمينة رشيد، الأدب المقارن و الدراسات المعاصرة لنظرية الأدب، ص: 19

إن محاولة تعداد الوسائل المساعدة على تلقي صورة الآخر ليس بالأمر الهين بل يمكن عده عنوانا لبحث مستقل بذاته، و لهذا ارتأينا الوقوف عند أهم الوسائل التي تعد مهدا لتجلي صورة الآخر بكل تفاصيله و التي نوجزها كالآتي:

1 - <u>الحروب و الاستعمار:</u>

قد يكون العنوان غامضا نوعا ما و قد يطرح ألف سؤال و سؤال حول علاقة الاستعمار و الحروب بالصورة إلا أننا نؤكد أن الحروب على الرغم من قسوتها و بشاعتها ، فقد ساهمت كثيرا في تحديد ماهية الآخر من خلال ذلك الاحتكاك الحذر بين الأنا و الآخر ، و من هنا تعالت الأصوات و تنوعت الصور فلكل طرف وجهة نظر في الآخر قد تنبع في مجملها من ينابيع العداوة و الكراهية، فمعاني الحروب و الاستعمار كثيرة، فقد وصفت غادة السمان في سلسلتها القصصية الموسومة بـــ: " **عيناك قدري 1962** " الاستعمار الفرنسي بأبشع الصفات الوحشية التي مارسها على الشعب الجزائري الأعزل. و قد وردت هذه الصورة جليا في قصتي: **" مغارة النسور" و"براري شقائق النعمان"**[1] فالصورة التي نقلتها الأديبة كانت ترجمة حقيقية لصفات الاستعمار الفرنسي الذي لا يجيد التفريق بين الصغير و الكبير، بين الشيوخ و الشباب.في حين نجد المستعمرين في الضفة الأخرى يبحثون عن كل المسوغات التي تبرر سياستها الاستعمارية و أسباب تواجدها في هذه العوالم.«... ففي خطاب آرثر جيمس بلفور في 13 يونيو عام 1910, برر احتلال إنجلترا لمصر بمعرفة الإنجليز بمصر وأحوالها وتاريخها وحضارتها, وضرورة احتلال إنجلترا لمصر تنبع من معرفة بلفور والإنجليز بتاريخ هذا البلد...»[2] لا شك أن تبني مثل هذه الأفكار نابع حتما من عدة خلفيات، و هذا ما حدث

1. ينظر: غادة السمان، عيناك قدري، منشورات غادة السمان، بيروت، ط1، 1962، ص: 171.65
2. عبد العليم محمد، مجلة العربي، الأحد 1 ديسمبر 2002 / العدد 529 .

تماما مع أولئك الذين ساندوا الاستعمار و روجوا له من خلال كتاباتهم التي تتعارض مع الواقع كثيرا، تماما كما فعل القادة العسكريين الذين كانوا يصورون الآخر العربي بالتخلف، و الدونية، و الهمجية، و الكثير من الصفات الدنيئة التي تنم عن نفس حاقدة، لا تؤمن أبدا بالمنطق أو الموضوعية.

مهما يكن لقد أسهم أدب الاستعمار في تجلي صورة الآخر و إبراز جزء من حقيقتها على الرغم من ذلك التزييف الذي كان يشوب بعض الصور إلا أننا تعرفنا بفضله على بعض قيم، و تفاصيل الآخر .

2 - <u>الاستشراق:</u>

يعد الاستشراق أحد أهم الظواهر الثقافية و المعرفية التي تتغذى على عواطف اكتشاف الآخر المجهول الذي يتمثل عادة في الشرق الساحر بكل تفاصيله، حيث يتفق أغلب الدارسين المهتمين بتفسير ظاهرة الاستشراق على أنه "علم الشرق". ومن هنا اهتم المستشرقون منذ آلاف السنين بالعالم الإسلامي. و اتجه المستشرقون نحو المشرق و خصوصا العربي بكل ما يحويه من ثقافات و معارف، عادات و تقاليد، و ما تعلق به من سمات ثقافية أو حضارية أسست لوجوده في هذا العالم، فالشرق في عيون الآخر الغربي له دلالاته و إيحاءاته.

أما عن البدايات الأولى التي أسست لظهور الاستشراق فقد كانت « في أعقاب الصدام العنيف بين الحضارتين المختلفتين، الحضارة الإسلامية الشابة المتثوبة و الحضارة الغربية المترنحة المتخاذلة و استطاعت الحضارة الإسلامية أن تبسط سلطانها على جزء كبير من و آسيا و إفريقيا و امتدت إلى جنوب أوروبا» [1] هذا يعني أن الصدام

1. محمد فاروق النبهان، الاستشراق: تعريفه مدارسه وآثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم الثقافة.ايسيسكو، الرباط، د ط، 2012، ص: 08

العنيف بين الحضارتين قد أبان تفوق الحضارة الإسلامية الفتية مما خلق فضولا كبيرا في صفوف الغربيين الذين كانوا في حاجة ماسة إلى التعرف على أسباب قوة هذه الحضارة التي ضاع صيتها على الرغم من فتوتها، ومن هنا بدأت هذه الرحلات الاستشراقية الهادفة إلى استقراء كل ما يحويه هذا الشرق الغامض المفعم بتنوع معارفه،و ثقافاته، و كل ما يسلب الآخر الغربي. « فالتعريج على الاستشراق يعني، من بين ما يعنيه، تحليل صورة الآخر،الإسلام،العرب، و سائر الشعوب غير الأوروبية في أوروبا أو الغرب.»[1]

فالاستشراق يهتم برصد صورة الآخر غير الأوروبي ، و محاولة تحليل صورته انطلاقا من أبعاد مختلفة تهدف في مجملها إلى تقصي حقيقة الآخر ، و إعادة تصويرها « و من هنا فقد درس الاستشراق الإسلام، و الحضارات الأخرى باستخدام أفكار أوروبية عن الله، و الإنسان و الطبيعة، و المجتمع، و عن العلم، و التاريخ، و وجد بصورة متسقة أن الثقافات و الحضارات غير الغربية متخلفة ، و أدنى من الثقافة ، و الحضارة الأوروبيتين.»[2] فالانطلاقة من الشرق ، و كل ما يتعلق به ، و لكن من منظور أوروبي يتبنى النظرة الدونية لغير الغربي، مما يعني أن الاستشراق في كثير من المحطات قد خالف الواقع بنظرته الذاتية التي تتعارض و كل القيم المتعارف عليها.و هذا ما يؤكده "**إدوارد سعيد**" في مقدمة كتابه الاستشراق « بالنسبة إلى الغرب انطوى فهم الإسلام على محاولة تحويل تنوعه إلى جوهر وحداني غير قابل للتطور، و قلب أصالته إلى نسخة منحطة من الثقافة المسيحية ، و مسخ شعوبه إلى كاريكاتورات مثيرة للرعب...»[3] ليتضح

---

1. سالم يفوت، حفريات الاستشراق (في نقد العقل الاستشراقي)، المركز الثقافي العربي،الرباط، ط1، 1989، ص: 07

2. ضياء الدين ساردار، الاستشراق : صورة الشرق في الآداب و المعارف الغربية، ترجمة فخري صالح، هيئة أبوضبي للسياحة و الثقافة، كلمة، أبوظبي، ط1، 2012،ص26

3. إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 1996 ص: 28

لنا أن هوس الغرب بالفوقية و تعلقهم بنظرتهم الدونية للبقية أقطار العالم و خصوصا العالم الإسلامي جعلت الاستشراق يشوبه الكثير من الغموض و الزيف نظرا لتلك الإيديولوجيات المسيحية التي أثرت على كل الصور التي كان ينتجها عن الآخر العربي فجاءت هذه الصور مبتورة و مشوهة خالية في كثيرا من الأحيان من الموضوعية كيف لا و هم يقللون من شأن الإسلام واصفين إياه بالتشدد ، و كل ما تيسر من الصفات التي تخالف واقع الإسلام و المسلمين الذين صوروا بأبشع صور التخلف و الجهل .فتعقيبات ادوارد سعيد عن الاستشراق كانت بمثابة « تحليل للعلاقة القائمة بين القوة و المعرفة و أداء الخطاب الاستشراقي الذي كان يؤدي وظيفة تعبوية و سياسية، و تخييلية خدمت السياسة الاستعمارية و شكلت جزء لا يتجزأ من مناخات صعود الامبريالية. » [1]

يتضح مما سبق أن الاستشراق قد روض ليكون أحد أجنحة الاستعمار من خلال ما له من إمكانات تسمح له بالعزف على الأوتار السياسة الاستعمارية التي أرست كل مفاهيم المركزية الغربية. و هذا ما يبين لنا الصورة السلبية للاستشراق إلا أننا لا يمكننا أن ننكر فضل المستشرقين المنصفين الذين قاموا بدورهم بكل موضوعية و أمانة بل و كانوا حريصين جدا في أن يكونوا« موضوعيِّين في تفكيرهم وفي أحكامهم؛ فقادهم التفكير المنُصفِ إلى قول الحق، ومنهم:"**جوت Goethe** " . أمير الشعراء الألمان"... الذي ألف ديوان (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي)، بل أكثر من ذلك فكتب مسرحية عن (محمد صلى اله عليه وسلم)، وصفه فيها بأنه جاء بأفكار عالمية جديدة؛ ليشيع السلام والمساواة والإخاء في العالمَ...»[2]

1. المرجع السابق، ص: 26
2. أنور محمود زناتي، مستشرقون منصفون .. جوته " Goethe "، http//:www.alukah.net/Culture / ، 2015.01.14. سا: 19:35

يبدو احتكام "**غوت.Goethe** " إلى الموضوعية و حرصه الشديد على تصوير كل ما صادفه بكل صدق و هو يبين سماحة الإسلام و الرسالة العظيمة التي جاء بها المصطفى "صلى الله عليه و سلم" بعد أن كتب " **غوت.Goethe** " ديوان عن الشرق و كذلك مسرحيات مبينة لحقيقة النبي و حقيقة الإسلام، حتى أنه تغنى بهما.

« و الاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا الإسلامي، فهناك من يؤيده و يتحمس له إلى أقصى حد، و هناك من يرفضه جملة و تفصيلا و يلعن كل من يشتغل به بوصف عدوا لدود للإسلام و المسلمين.»[1]

يتضح لنا من خلال ما أوردناه أن الاستشراق هو المعرفة التي أنتجها الغرب عن الشرق بمحاسنها و مساوئها في نقل صورة الآخر غير الأوروبي انطلاقا من الأبجديات و الإيديولوجيات التي يتبناها المستشرق في نظرته إلى الآخر و التي تتخذ مسارين متباينين إما نظرة ذاتية مرجعياتها استعمارية تسعى إلى طمس الحقائق و تزييف كل المشاهد مما يجعل الأجيال تتوارث صورة سيئة عن الآخر العربي الإسلامي، أو قد تنحى نظرته نحو الموضوعية و الإنصاف من الصدق ، و الأمانة ، و هذا حال القلة من المستشرقين الذين ساهموا بقدر كبير في التعريف بالحضارات المنسية وكذا تطوير آدابها و تحقيق مخطوطاتها و كذا تقديس كل خصوصياتها إيمانا منهم بمبدأ التعدد، التنوع و الاختلاف و كذا احترام الآخر بكل ما فيه من مزايا و عيوب بعيدا عن لهجة الفوقية أو المركزية الأوروبية الامبريالية*...

1.محمود حمدي زقزوق، الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة، د.ط،د.ت، ص: 12

*.**الامبريالية:** أو التسلطية بالإنجليزية (Imperialism) : هي سياسة توسيع السيطرة أو السلطة على الوجود الخارجي بما يعني اكتساب وصيانة الإمبراطوريات وتكون هذه السيطرة بوجود مناطق داخل تلك الدول أو بالسيطرة عن طريق السياسية أو الاقتصاد.**عن ويكيبيديا**.

3 - **التــرجمـــــة:**

ساهمت الترجمة على امتداد التاريخ الثقافي الإنساني في عملية المثاقفة عبر كل أقطار العالم نظرا لتلك المهمة السامية التي كان يبذلها المترجمون في التعريف بين الآداب العالمية فلولا الترجمة لما انتعشت هجرة النصوص لتتخطى حدودها الإقليمية كضرورة ملحة لطرق أبواب العالمية، فأخذت هذه الشعوب تتواصل فيما بينها من خلال تلك الترجمات التي ساهمت في انفتاح الأنا على الآخر، كيف لا و هو يستمتع بقراءة هذه الكتابات و يستسيغ كل قيمها الجمالية، و الفنية.لتنجح الترجمة في نهاية الأمر في التقريب بين الشعوب و نشر ثقافاتها، و التعريف بواقعها الحضاري و الاجتماعي.

فأصبح من السهل أن يطلع الأنا على كل ما كتبه الآخر و يستسقي من كتاباته كل تفاصيله، فشعوره « بالحاجة إلى دراسة ما للآخر من نماء معرفي لا يتمّ إلاّ عبر أداة الترجمة التي تسهم في تفعيل ثقافتنا ضدّ الركود الذي تشهده والذي لا نجد له مثيلا في أية حضارة أو لغة في وقت يعيش فيه العالم انفتاحا منقطع النظير ،على التنوع لدفع المسيرة الحضارية للتحديث»[1] فمن المعروف أن ذلك الفضول الكبير الذي أسر الأنا دفعه إلى تجنيد الترجمة قصد التعرف على نتاجه المعرفي و الثقافي ومن هنا ساهمت الترجمة في تفعيل هذا التبادل الثقافي بين هذه الشعوب نظرا لذلك الانفتاح و التنوع الذي يشهده العالم الآن.

أما عن البدايات الأولى للترجمة فقد بدأت « ملامحها تظهر، منذ تلك المحاولات التاريخية التي ظهرت في أوروبا، اعتبارا من القرن الثالث عشر، بإنشاء

1. ياسمين فيدوح، إشكالية الترجمة في الأدب المقارن، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ط1 ،2009، ص:87

مدرسة طليطلة مرورا بمدرسة الباب العالي، و مدرسة اللغات الشرقية،...» [1]فالحاجة إلى معرفة الآخر دفعت الأنا إلى إنشاء العديد من المدارس التي ترعى الدراسات الترجمية كمحاولة لإشباع فضول الرغبة في معرفة الآخر انطلاقا من كتاباته، آدابه، فنونه ، تاريخه و كل ما يتعلق بهويته.« و الترجمة تقوم بدور طيب في التعريف بآثار الأمم الأخرى و الأعمال الأدبية الكبرى.» [2]يتبين لنا أن رسالة الترجمة و المترجم نبيلة فلا تخلو ترجمة من نقل آثار و آداب الأمم الأخرى. ومن هنا تبدأ المراحل الأولى للمثاقفة ، و التعريف بين هذه الشعوب.

إذا يمكن عد الترجمة أسهل الوسائل و أوفرها لتمكين الجمهور من الاطلاع على روائع الأدب العالمي نظرا لجهله باللغات الأجنبية...فقد نافست بعض الترجمات الروائع الأدبية في مستوى لغتها الأصلية 3 هذا يعني أن وجود الترجمة سهل للأنا عملية الإطلاع على مختلف الإبداعات التي ارتقت بجماليتها إلى مستوى العالمية، فقد أصبح من السهل الإطلاع على الإنتاج الأدبي العالمي باللغة التي يتقنها الأنا بفضل الترجمة دون أن ننسى تلك البصمة الرائعة التي رسمتها هذه الترجمات بلغتها الجديدة.« فالترجمة إذن ظاهرة ثقافية على درجة كبيرة من الأهمية.إلا أن هذه الظاهرة ظاهرة إشكالية، و مثيرة للجدل فمذ وجدت الترجمة وجد الجدال حول جودتها،أي حول مدى التكافؤ و التناظر بين الترجمات و النصوص الأدبية الأصلية أو الأجنبية.» [4] فعلى الرغم من نجاح الترجمة

---

1. زياد العودة، مجلة الآداب العالمية،اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 152، خريف 2012 ، السنة السابعة و الثلاثون، ص: 184
2. طه ندا، لأدب المقارن، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، د.ط، 1991، ص: 32
3. بير برونيل وآخرون : ما الأدب المقارن؟، تر: عبد المجيد حنون وآخرون ، ص:73
4. عبود عبده، هجرة النصوص: دراسات في الترجمة الأدبية و الإنتاج التبادل الثقافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1995، ص: 07

كظاهرة ثقافية ساهمت كثيرا في الترويج للروائع العالمية إلى أنها أثارت جدلا واسعا وسط النقاد و الدارسين في قضية عجزها أحياننا على محاكاة بعض الأعمال الأدبية في جودتها و أصالتها.

إلا أن حاجة الأنا إلى التواصل مع الآخر تحتم عليه « مهما زعم المرء لنفسه أنه متكامل معرفيا وحضاريا فإنه لابد أن يجد نفسه مضطرا إلى الآخر في مكوناته الحضارية بوصفها حلقة اتصال وتبادل وتفاعل في الثقافات ولن يكون ذلك كذلك إلاّ بواقع الاحتكاك بالآخر عبر آلية الترجمة...» [1] معنى ذلك أنه مهما تفوق الأنا حضاريا و ثقافيا إلا أنه سيظل دوما في حاجة ماسة إلى التواصل مع الآخر، و التبادل معه ثقافيا و معرفيا و لا يتم ذلك إلا عبر وسيط الترجمة الذي جسد هذا التواصل و أسهم في خلق العديد من الصور والانطباعات حول ماهية كل طرف طبعا من خلال مرجعيات عدة أهمها تلك الأوعية الثقافية و الحضارية التي ترجمت إلى من اللغة الأم إلى لغات عدة.

4 - أدب الرحلة:

يمثل أدب الرحلة أحد أهم روافد الآداب العالمية، و الدراسات المقارنة، حيث شهد الشرق على ممر العصور العديد من الرحلات، أين توافد عليه الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين أصيبوا بهوس استكشاف الآخر، و محاولة فك طلاسم مصطلح الشرق الساحر، و من هذه النقطة بدأ الرحالة الأوروبيون رحلاتهم نحو الشرق، و قد حضيت رحلاتهم بإعجاب كبير في وسط المتلقين لها. وكانت أجمل صورة لالتقاء الإنسان بالعالم الخارجي، لتبين لنا في الأخير براعتهم في تصوير الأحداث التي عايشوها هناك، فنقلوا أدق تفاصيل الآخر،« و أيا كانت دوافع الرحالة، المعلنة منها و الخفية فقد اتصفت أغلبية الرحالة –و لو بدرجات متفاوتة– بدقة الملاحظة و الوصف و التقصي في تسجيل

1. ياسمين فيدوح، إشكالية الترجمة في الأدب المقارن، ص:77

مشاهداتهم بأمانة وصدق...» [1] يتضح أن لهذه الرحلات دواع عدة إلا أن الشيء الملاحظ من خلال هذه الرحلات استعانة أصحابها بكل تقنيات الوصف و أبعاده حتى يتمكنوا من نقل و تسجيل هذه المشاهد للمتلقي كمحاولة لتقريب صورة الآخر للأنا. « في المقابل نجد بعض الأدباء حين يواجه بصور الشعوب الأخرى يصبح أكثر تمسكا بهويته الثقافية و أكثر استعلاء على الآخر، حيث يكتشف حسنات نمطه في الحياة و تفوق ثقافته على الثقافات الأخرى.» [2] فالذاتية في نقل الصور و المعلومات تفرض نفسها على بعض الرحالة ما يجعلهم يمارسون النظرة الاستعلائية على الآخر و كل ما يتعلق به من نمط في الحياة أو ثقافة أو عادات و تقاليد...

لذلك لا ينبغي علينا إغفال التفاوت بين هذه المشاهد المنقولة التي تعد «المكونات الفاعلة في رسم صورة الآخر على نحو ما تظهر عليه في متن (الرحلة الأوروبية) في القرن التاسع عشر» [3] فرسم صورة الآخر العربي يستدعي تجميع مكوناتها الأولية من تلك الرحلات التي قام بها الرحالة الأوروبيون إلى العالم العربي مع بدايات القرن التاسع عشر. فقد «انصرفت جهود العديد من الرحالة إلى تدوين نصوص رحلية تندرج ضمن خانة الرحلات الوصفية التي يدونها الرحالة عقب رحلة سافر فيها إلى مكان آخر بقصد التحصيل العلمي و تلاقح التجارب الثقافية، و الاحتكاك بمكونات معرفية و ثقافية أخرى.» [4] فحاجة الإنسان إلى التحصيل العلمي، و الاحتكاك بمصادر ثقافية

1. حسين محمود فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرف، الكويت، د.ط، 1989، ص: 12
2. ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي ، ص: 18
3. سعيد بنسعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، ص: 99
4. شعيب حليفى، الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص: 150

و معرفية أخرى دفعته إلى السفر و الرحلة بعيدا، و كتابة نصوص رحلية كثيرة بالاستعانة بكل أساليب الوصف الفاعلة.

و تجدر بنا الإشارة أيضا إلى النسق الثقافي الذي تبنى عليه هذه الرحلات « ذلك أن الرحالة كان مسكونا بنسقه و متلقيه، فيرحل و معه خصوصياته و ثقافته و نسقه الذي يكون حاضرا في تجربته، و مشاهداته، و مروياته، و ينتقل معه إلى العوالم التي ارتحل إليها.و يساهم في إنتاج هذه النصوص، و يملي على الرحالة ذكر أشياء و حذف أخرى.»[1] هذا يعني أن الرحالة مهما كان موضوعيا في نقل مشاهداته و مروياته التي صادفته في رحلاته إلا أنه سيظل خاضعا لمكوناته الثقافية، و خصوصيته المعرفية التي تحتم عليهم في كثير من المحطات حذف بعض المشاهد التي لا تتماهى و أنساقه الثقافية الظاهرة منها أو المضمرة.

لهذا فقد تعددت الرحلات و تنوعت بحسب أهدافها و أبعادها، و كان الشرق عنوانها وكان النمط الغالب في الرحالات « يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد،... فالرحالة و هو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة،... و لا شك أنهم يختلفون في درجة صدقهم أو أمانتهم و في تنوع فهمهم لأمور تحت الظروف المتغايرة التي يخضعون لها.» [2] لقد إذا ساهم الرحالة على اختلاف أجناسهم و تنوع ثقافاتهم في نقل تفاصيل الآخر ، و تدوين كل الملاحظات حول ماهيته و كل ما تعلق به، و حتى خصوصياته الاجتماعية، و الثقافية، و الاقتصادية.

---

1. الساوري بوشعيب، الرحلة و النسق: دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء. المغرب، ط1، 2007، ص: 96

2. حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط2، 1983، ص: 06

ومن الرحالة الذين تجسدت في نصوصهم الرحلية صورة العالم العربي عامة و الجزائر و مصر على وجه الخصوص: رحلات " **غوستاف فلوبير. Gustave Flaubert**"، "**ألفونس دودي .Alphonse Daudet**"، "**تيوفيل غوتييه . Théophile Gautier**"، "**غي دو موبسان.Guy de Maupassant** " حيث زار هؤلاء الجزائر و قدموا صورا متنوعة عن الجزائر في إطار ما يسمى باستكشاف الشرق كما هو الحال بالنسبة للرحالة الذين زاروا مصر « و مثال ذلك صورة مصر كما يراها **جيرار دي نرفال Gérard de Nerval**" أو كما يصورها **فيكتور هيغو V.Hugo** من الكتاب الفرنسيين. »[1] ما يعني أن هذه الرحلات كانت هادفة و اكتست أهمية بالغة، على الرغم من كل تلك الاختلافات التي وردت في مضامينها من دقة، و صدق، نظرا لاختلاف الرواة و الرحالة الذين تتحكم في رؤاهم كما أشرنا سابقا أنساق ثقافية متنوعة، و كذلك خصوصيات معرفية، اجتماعية، دينية، حضارية،...

يتضح مما سبق أن استناد الرحلات إلى كل تفاصيل و حيثيات حياة الآخر يجعلها أكثر الوسائط قدرة على تصوير الآخر، فكيف صور الرحالة الأوروبيون العالم العربي ؟ و هل صورت العالم العربي " **الشرق**" بكل أمانة و دقة أم أنها قد أخضعت هذه الصور لواقعها و خصوصيتها الأوروبية ؟

1. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط3، ص: 419

الفصل الأول

المشرق في عيون الرحالة الأوروبيين
- مصر أنموذجا-

- أولا: صورة المشرق في عيون الرحالة الأوروبيين

1 -الرحلة إلى بيت المقدس و الصراع مع الآخر

2 الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية والآخر بين التسامح و العداء

3 الرحلة إلى بلاد الشام و الآخر المستعمَر

- ثانيا: صورة مصر في مرآة الرحالة الأوروبيين

تمهيـــد:

أثار مصطلح الشرق فضول الكثير من الأوروبيين المولعين بحب استكشاف الآخر، و التعرف على ماهيته، و من هنا بدأت قوافل الرحالة في التوجه نحو المشرق العربي الذي بدا لهم عالما ساحرا يختلف كثيرا عن العوالم الأوروبية الأرستقراطية، فقد أثار المشرق المكتنف بالغموض، و المحاط بجمال الصحراء، و الطبيعة الفاتنة الدهشة في نفوس الرحالة الأوروبيين لما يتميز به من فرادة تخصب الخيال، و تثير الدهشة بتنوعه الذي استقطب الكثير من الكتاب، و خصوصا رواد الرومانسية الذين كانوا يرون في الشرق ملجأ يريحهم من عناء الحروب التي شهدتها أوروبا آنذاك خصوصا الحرب العالمية الأولى و الثانية، « ليشكل الشرق وسيلة للهروب من المجتمع الغربي الذي لم يجلب للإنسان سوى الدمار»[1] .

و ينبغي الإشارة إلى أنّ دوافع هذه الرحلات لا تقتصر على الهروب من الواقع القاسي الذي كانت تعيشه أوروبا فقط، فالمتمعّن في هذه الرحلات سيدرك حتما أن ثمة أسبابا عدة كانت وراء تواجد هؤلاء الرحالة بالمشرق العربي، حيث نجد من بينهم العلماء و رجال الدين دون أن ننسى هواة السفر، و الترحال و لما لا هواة المغامرة أيضا فضلا عن ذلك رواد الرومانسية الذين شغلهم مصطلح الشرق كثيرا لما يرون فيه من اختلاف و خصوصية سوسيوثقافية تدعو إلى كشف النقاب عن هذه العوالم التي كثيرا ما وصفوها بالعجائبية ،فقد أضحى كل ما يتعلق بالشرق بالنسبة لهؤلاء أمرا عجيبا و غريبا في كثير من الأحيان فليالي الصحراء تخلف كثيرا عن أجواء أوروبا الباردة نفس الشيء يقال عن العادات و التقاليد التي تميز المنطقة ، « في الواقع أن ما كان يبحث عنه الرحالة منذ القرن السابع عشر في البلاد البعيدة هو: صورة الإنسان الأبدي، و جذوره

1. ماجدة حمود، صورة الشرق لدى هرمان هيسه، مجلة دمشق، المجلد 19(1+2)،2003، ص:74

و صراعاته و النتائج التي اكتسبها، و الإمكانية التي كانت بحوزته و التي تسمح له ببلوغ حياة أجمل و أفضل» [1] يبدو أن الرحالة الذين قرروا زيارة المشرق لم يأتوا صدفة أو هروبا من الرتابة التي كانت مفروضة في المجتمعات الأوروبية فحسب وإنما كانوا يطوفون لغرض معرفة الآخر عن قرب بكل تفاصيله قصد الاقتراب كثيرا من المجاهل الشرقية و إدراك كل جزئياتها: الإثنوغرافية،الدينية الاجتماعية السياسية، و غيرها.

فقد أصبح الخروج و التوجه نحو الشرق رغبة ملحة في أوساط الرحالة الأوروبيين المولعين بالمغامرة و الترحال بعيدا عن الديار. فكيف تشكّلت صورة المشرق – بصفة عامة وصورة مصر على وجه الخصوص – في النص الرّحلي الأوروبي ؟

أولا: صورة المشرق في عيون الرحالة الأوروبيين:

1 – الرحلة إلى بيت المقدس و الصراع مع الآخر:

ترجم الرحالة رحلاتهم في عديد من القصص، و المذكرات التي كانت شاهدة عصر على مرورهم ببيت المقدس، وتجدر الإشارة إلى أن الرحلات التي سجلت في القرنين السادس عشر، و السابع عشر كانت ذات طابع ديني حيث قدّم أغلب هؤلاء الرحالة إلى بيت المقدس لتأدية بعض الطقوس الدينية المتعلقة بالمسيحيين باعتبار بيت المقدس ليس فقط مسرى للنبي صلى الله عليه و سلم ، و إنما هي مركز الأديان، و مهد السيد المسيح عليه السلام، و لعل من أشهر الرحالة الأوروبيين الذين قدموا إلى القدس زمن الحروب الصليبية: «... الروسي **دانيال** الراهب الذي قام برحلته إلى فلسطين ما بين

1. مي عبد الكريم محمود، تائهون في صحراء الإسلام: صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة و المستشرقين الفرنسيين، الأهالي، سوريا، ط1، 2003، ص:07

(1106م–1108م) حيث تعرض دانيال لمختلف جوانب الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية في فلسطين خلال بداية العدوان الصليبي...» [1] يتبين لنا أن القدس كانت مزارا دينيا لمختلف الديانات و أن الرحالة "**دنيال.Daniel kievsky**" قد عرض من خلال رحلته أجواء الحروب الصليبية، و ما أسفرت عنه من مآس، و دمار. فتواجد الرحالة الأوروبيين في بيت المقدس كانت له أسباب عدة لعل أهمها دينية.

كما يدعم هذه الرؤية "**صاموئيل هنتنغتون**" صاحب كتاب " صدام الحضارات" الذي يرى أن الدين هو المعيار الأول للتمييز بين الحضارات مشيرا إلى أن الأسباب الحقيقية لهذا النمط من الصراع تكمن في الخلافات الناتجة عن كون الإسلام « منهج يوحد الدين و السياسة ضد المفهوم الغربي المسيحي الذي يفصل الدين عن السياسة، و لكن الصراع أيضا ينشأ من التشابه بينهما كل منهما يؤمن بالله الواحد و في ذلك يختلفان عن الأديان الأخرى التي تشرك بالله كل منهما يرى العالم بطريقة مزدوجة نحن، و هم، كل منهما عالميا يدعي بأنه الإيمان الحقيقي، و الذي يجب أن تعتنقه كل الإنسانية...» [2] و يبدو أن هذه الأسباب هي جذور الصراع بين الإسلام، و المسيحية إذا تكمن في التساؤلات الأساسية حول القوة، و الهيمنة و التي آلت فيم بعد إلى صدام الحضارات.

ومن بين الرحالة الذين زاروا بيت المقدس أيضا " **سايولف Sailauf** " الذي زار فلسطين ما بين (1102م–1103م) وتكمن أهمية رحلته في أنها جاءت بعد «الاستقرار الصليبي في بلاد الشام و هي تعطي لنا صورة هامة عن الصراع الإسلامي الصليبي

1. رشاد المدني، بيت المقدس في عيون الرحالة المسلمين و الأجانب في القرنين الخامس و السادس الهجريين، الجامعة الإسلامية، غزة ، 2011، ص: 1078

2. صاموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات و إعادة بناء النظام العالمي، تر: مالك عديد أو شهيوة و محمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع و الإعلام، ليبيا، ط1، 1999، ص: 372

خلال ذلك العهد المبكر »[1] و الاستيلاء على بيت المقدس، كما أنها «تحظى بالاهتمام و الرعاية فهي اشتغال حركة المقاومة الفلسطينية ضد المستعمر منذ البداية.»[2]

يبدو أن رحلة "سايلوف **Sailauf** " تحتل مكانة خاصة و هي تعبر عن الصراع القائم بين المسلمين و الصليبين و كذا إشارته إلى الصعاب التي كانت تصادف الأوروبيين الوافدين للمنطقة لغرض أداء الطقوس المسيحية، فضلا عن ذلك إشارته إلى المقاومة التي لقيها الصليبيون من طرف المسلمين آنذاك إذ «يحدق الخطر في هذا الطريق ليس فقط بالفقير و الضعيف بل أيضا بالثري، و القوي و الكثيرين يقتلون على أيدي العرب»[3] و كل هذه الصور تجسد إلى حد بعيد الصراع بين الأنا و الآخر، بين الشرق و الغرب بين الإسلام و المسيحية *، و باقي الأديان الأخرى التي تقف موقف النقيض من مبادئ الإسلام، و حضارته إذ يتضح أن إقدام المسلمين على قتل الفقراء من الصليبين دليل على عدم استهدافهم للأموال أو الأمتعة و إنما رغبة ملحة منهم لمقاومة الصليبيين الذين

1. محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بلاد المقدس الصليبية 1099–1187، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، ص: 45.
2. ينظر الموقع :http://www.neelwafurat.com ، 2015/03/15، 14:34 سا
3. محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بلاد المقدس الصليبية 1099–1187، ص: 34

*. إن تصورات الغرب العدائية اتجاه الإسلام لها جذور تبلغ من العمر ألف عام، و الأصوات التي دعت إلى حوار سلمي بين الحضارتين كانت منذ القرون الوسطى حالات استثنائية، أو اقتصرت على حلقات العلماء و التي و إن لم يعترف فيها بقيمة الدين الإسلامي إلا أن العالم العربي كان ينظر إليه فيها بعين التقدير و الاحترام أما الرأي العام المتعارف عليه فلم يتأثر بذلك. و بعد سقوط عكة آخر حروب الصليبيين سنة 1291، و بسبب الحروب التي دارت داخل أوروبا اللاتينية – المسيحية– اختفى السراسنة كما كان العرب يسمون في ذلك الوقت. للتوسع في صورة الإسلام في الغرب بعد انتهاء الحروب الصليبية. ينظر: محمد عابد الجابري، الإسلام و الغرب (الأنا و الآخر) الكتاب الأول،الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، ط1،2009، ص:80.

استولوا على بيت المقدس، و عاثوا فيه فسادا مّما يعني أن كّل ما يقومون به من مقاومة لهؤلاء الغزاة ذات طابع جهادي يهدف إلى تحرير الأراضي المحتلة، وهذا نابع من الثقة في أهمية حضارتهم و قيمهم .

أمّا الرحالة الأوروبي الألماني " **يوحنا فورزبورغ John Forsberg** " فقد بدأ « ...حديثه عن بيت المقدس بالإشارة إلى موقع المدينة و السماء التي اشتهرت بها و مسافات المدينة المقدسة بينها و بين المدن الفلسطينية الهامة، و لعل هذه القضية توضح مدى اهتمام الرحالة الأوروبي بطرق المواصلات التي تربط المدينة المقدسة بغيرها من المدن....»[1] و عموما فقد ركز الرحالة الأوروبيون من خلال رحلاتهم على الجوانب الإثنوغرافية، و التاريخية، و الحضارية لبيت المقدس بالتركيز على الأقاليم الجغرافية ذات المواقع الإستراتجية التي جعلت منها موضع صراع مع الآخر.

2 – الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية والآخر بين التسامح و العداء:

نالت شبه الجزيرة العربية هي الأخرى اهتمام الرحالة الأوروبيين ومن أهمهم –على سبيل المثال لا الحصر – رحلة البولوني "**لويس فارثيما Lewis Varthema** "إلى مكة و المدينة منطلقا من بلاد الشام سنة 1503 كما تجدر الإشارة إلى ذكر رحلة الدانمركي "**كارستن نيبور Carsten Niebuhr**". الذي أهدى كتاب رحلته إلى الملك حيث يحتوي على وصف عام للبلاد من النواحي الدينية و الاجتماعية، و السياسية، و اللغوية

1. ينظر موقع :http://www.neelwafurat.com ، 2015/03/15، 23:17 سا

و فصول عن المناطق المختلفة من الجزيرة العربية: حضرموت اليمن، عما ن، مناطق الخليج، و نجد، الحجاز و صحراء سيناء.[1]

و على خطى "**نيبور Niebuhr** " بدأ الرحالة الأوروبيون مع بدايات القرن 19 التوافد على المناطق المختلفة من الجزيرة العربية و من بين أهم هؤلاء نذكر: "سيتزن **Seetzen** " و الرحالة "بيركهارت **Burckhardt** " حيث كانت اهتمامات هؤلاء الرحالة بمنطقة "الجوف" و "وادي السرحان" التي تشكل القسم الشمالي للجزيرة العربية و البوابة الرئيسية لعبور الرحالة الأوروبيين إلى وسط الجزيرة العربية مما يسر لها أن تكون أول و أكثر المناطق التي قدّم عنها هؤلاء الرحالة الكثير من المعلومات و التفاصيل التي تصف جغرافيتها و تؤرخ لأحوالها و سكانها لما يقرب عن قرن الزمن.[2]

فقد ترجم "**عوض البادي**" العديد من الرحلات من اللغات الفرنسية و الألمانية و كذا الإنجليزية و تمثلت في رحلات: "**جورج أوغست والن. Georg August Wallin** " "**جيفورد بلغريف Gifford Palgrave** "،**كارلو غورماني Carlo Guarmani** " "**تشارلز هوبر Charles Huber** "، "**البارون ادوارد نولده Edward Nolde** "،... و قد سجل هؤلاء الرحالة على اختلاف جنسياتهم و لغاتهم تفاصيل رحلاتهم بكل عناية و هم يلاحظون و يراقبون بفضول كبير أسلوب العيش واللباس والعلاقات، وكان أي شيء يلفت انتباههم لكونهم غرباء وذلك مثل المقاهي والأسواق والحمامات والطرقات...

وكان الكولونيل البريطاني"**لويس بلي Lewis Pelly**" من بين الرحالة الذين زاروا شمال الجزيرة العربية حيث كان مقيما سياسيا للحكومة البريطانية في الخليج

1. عوض البادي، الرحالة لأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف و وادي سرحان، 1845–1922، الدار العربية للموسوعات، الرياض،ط2، 2002، ص: 10
2. المصدر نفسه ، ص:12

و قد أشار في نصه الرحلي بأن الهدف الأول و الأساسي من رحلته يتمثل« في إبعاد أية مشاعر عدائية يحملها الأمير–و التي ترسبت في عقل سموه– إزاء إجراءاتنا ضد الرق في الساحل الشرقي لإفريقيا. وهجماتنا على الساحل الشرقي و بذل قصارى جهدي لاستبدال هذه المشاعر العدائية بعلاقات الصداقة عن طريق اللقاءات الشخصية.. و لأكون قد أديت عملي على نحو مرض كمقيم (معتمد) سياسي للحكومة في هذه المناطق.» [1].فقد دوّن "**لويس بلي Lewis Pelly**"عدّة الملاحظات حيث رأى من خلال رحلته أن« سكان المنطقة يتمتعون _ بما فيهم اليهود_ بتسامح ديني متكامل،...»[2]

يتبين أن "**لويس بلي Lewis Pelly**" قد أعجب كثيرا بالتسامح الديني الذي كان يتمتع به سكان المنطقة .

أما عن الجوانب الاجتماعية و الاقتصادية للمنطقة فإن الرحالة يرى أن « الناس هنا يبدون مرحين بطبيعتهم و مكرسين أنفسهم للتجارة و الزراعة، فهم يلبسون الحرير، كما يباع التبغ علنا في الأسواق. و لو أنني سمعت أخيرا أن مبعوثين و شيوخا قد أرسلوا من العاصمة إلى الأحساء للإنكار على الناس حياتهم المنحلة و لتطبيق المحافظة السلفية (الوهابية) المتعصبة...»[3]

يتضح لنا من خلال ما دونه الكولونيل "**لويس بلي**" أن سكان المنطقة كانوا مهتمين بالتجارة و الزراعة إضافة إلى أن حالتهم المادية جيدة فهم يلبسون الحرير

1. لويس بلي، رحلة إلى الرياض، تر: عبد الرحمان عبد الله الشيخ و عويضة بن متيريك حامد الجهني ، مطابع جامعة الملك سعود، ط 1، 1991، ص:23

2.المصدر نفسه، ص: 17

3.المصدر نفسه، ص: 45

و يدخنون، كما يتسم هؤلاء بالمرح ، كما نلحظ أن السلطات كانت ترسل شيوخا لمراقبة أحوال المجتمع و مدى تطبيق العقيدة.

في حين أن " **الليدي آن بلنت Lady anne blunt**" تصف ما رأته في الجوف و وادي سرحان من حفاوة استقبال و أخلاق فاضلة في كتابها "رحلة إلى بلا نجد" قائلة: « استقبلنا شيخ القرية عبد الله الخميس بحفاوة كبيرة...و حالما وصلنا قدم لنا صحن من التمر... و في المساء قدم لنا العشاء و هو مكون من البرغل و لحم الديوك المسلوق. و قد أدهشنا أدب كل شخص فيهم.لقد سألنا مضيفنا الشيخ عبد الله الخميس عن صحتنا أكثر من عشرين مرة...»[1]

يتضح لنا أن الجود و الكرم و كذا الطيبة من الصفات التي لازمت العرب منذ القدم فقد اندهشت "**بلنت**" لما رأته من كرم و حسن ضيافة لدى هؤلاء البسطاء. أما الرحالة "**جيفورد بلغريف Gifford Palgrave**" فقد عبر دهشته لما رآه من شهامة و كرم في نفوس هؤلاء قائلا: « إن أعظم صفة لسكان الجوف هي ميلهم للتحرر...أما الشجاعة فلا يستطيع أحد أن ينزعها منهم.إنهم و بنفس القدر كرماء في حياتهم و في ممتلكاتهم، و مع جيرانهم...»2 يبدو أن إصرار سكان الجوف على التحرر أعجب كثيرا الرحالة غير أنه أعجب أكثر بالكرم الشديد حد الإيثار.

كما بدأ الإيطالي "**ماركوبولوMarco Polo**" رحلته في عام 1271 و قد كان آنذاك في سن السابعة عشر و كانت رحلته العجيبة قد بدأت من البندقة إلى أراض شاسعة في آسيا وصولا إلى الصين.حيث يعتبر كتاب " **ماركوبولو**" من الكتب النادرة التي كان هدفها

1.عوض البادي، الرحالة لأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف و وادي سرحان، 1845–1922، ص: 117.116

2.المصدر نفسه، ص: 79

تسجيل تاريخ الشعوب، و حضاراتها، و قد دون كتابه هذا في عصر الإمبراطور المغولي "قبلاي خان" الذي كان يحكم تلك المناطق التي زارها.

يتحدث "**ماركوبولو**" عن سكان الموصل على اختلاف دياناتهم قائلا: «و يسكن الأجزاء الجبلية جنس من الناس يسمى الأكراد بعضهم مسيحيون و بعضهم من النساطرة أو اليعاقبة ، و بعضهم الآخر من المسلمين. و جميعهم لا مبدأ لهم، صناعتهم سلب التجار..»[1] لا يخلو نص " **ماكوبولو**" الرحلي من مواقف مشوهة تضمر صورا سلبية تصور المسلمين على أنهم لصوص ، و أناس لا مبادئ لهم. و يواصل الرحالة حديثه عنهم قائلا: « و السكان المسلمون قوم اتصفوا بالخيانة و الغدر و التجرد من المبادئ...وأن كل ما سرق أو نهب من أبناء الديانات الأخرى، فه و أخذ حلال...فلو لم يمنعهم أو يكبحهم السلطان الذي يحكمهم الآن، لارتكبوا أفعالا نكراء كثيرة... و هذه المبادئ شائعة بين المسلمين جميعها...»[2]

يصور هذا المقطع من النص الرحلي صورة عدائية، و موقفا سلبي من الآخر العربي المسلم، و هذا ما ينم عن صورة مشوهة في الذهن الأوروبي عن الآخر العربي بصفة عامة و سكان الجزيرة العربية بصفة خاصة. و هذا ما يظهر جليا في تلك الصفات السيئة التي أطلقها على مسلمي المنطقة، فهو يروي أنهم متجردون من كل المبادئ و أنهم خونة فضلا عن ذلك أنهم لصوص، و نعتقد أن كل ما قيل مبالغ فيه يستهدف بالدرجة الأولى تشويه صورة العربي المسلم.

1. ماركوبولو، رحلات ماركوبولو، تر: عبد العزيز جاويد، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1995، ص56

2. المصدر نفسه، ص: 65.64

3 – الرحلة إلى بلاد الشام و الآخر المستعمَر:

يستدعي الحديث عن بلاد الشام الالتفات غلى موقعها الاستراتيجي الذي جعلها ملتقى الشرق و الغرب باعتبارها مدخلا للقارات الثلاثة أوروبا و آسيا و إفريقيا، و قد سمح لها موقعها بأن تكون مركز التقاء بين الأمم و الحضارات ناهيك عن كونها قبلة للتجارة منذ القدم، و من هنا كانت أيضا هدفا للرحالة الأوروبيين الذين توافدوا على المنطقة منذ الحروب الصليبية، وقد سنحت الفرصة للرحالة الفرنسيين لزيارة بلاد الشام كغيرهم من الأوروبيين الذين طالما توافدوا على المنطقة لاسيما في القرنين السابع عشر و الثامن عشر و من بين هؤلاء "**فولني Volney**". "**جان تيفينوت jean thevenot**" الفارس "**لوران دارفيو Laurent D'arviaux**"...

فقد أصبح الشرق يستهوي هؤلاء الرحالة على اختلاف جنسياتهم، و تباين أهدافهم التي لا تعد، و لا تحصى و راحت تتنوع بين التجارية، و التبشيرية، و الدينية و كذا التجارية والعلمية دون أن ننسى المغامرات الفردية.

لذلك حظيت بلاد الشام باستقطاب كبير للرحالة الأوروبيين و أبرزهم: "**فولني Volney**" وهو الاسم المستعار **(لقسطنطين فرانسوا)** الذي يمكن وصفه بالمراقب الدقيق والنزيه لسورية استمرت رحلته إلى سورية عامين ، « وكان قد قرأ روايات الرحلات التي سبقته وكانت فرنسا بين اتجاهين أولهما سعي فرنسا للحصول على غنيمة من الدولة العثمانية مثل مصر . والثاني الوفاء للصداقة مع العثمانيين وحماية أراضيهم التي يهددها النمساويون والروس.» [1]ما يعني أن رحلة فولني كانت مرتبطة بمشروع سياسي . وظهرت رحلته بعنوان (رحلة إلى سوريةِ ومصر خلال الأعوام 1783–1785م).

1. عبد الرحمن البيطار ، رحلات الفرنسيين إلى الشام وآثارها في المثاقفة في العصر الحديث، بحث مقدم للندوة التي يقيمها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، 2008، ص:08

كما يعد التاجر الإيطالي الفرنسي المنشأ " **لوران دايفيو .Laurent D'arviaux** " من بين الرحالة الذين زاروا بلاد الشام –في أواسط القرن السابع عشر– خصوصا الريف اللبناني و سجلوا انطباعهم حول المنطقة من خلال اهتمامهم بطرق العيش و التفكير و مختلف النشاطات الاقتصادية و الاجتماعية التي تكسب المنطقة طابعها الخاص. فكان " أنّ صور هذه المدائن "أكواخ وآثار، و جبيل" كونها قرى خالية. و كذا الراهب المالطي "**دومينغو مغري. Domingo Magri** "دون غيره من أوائل القرن السابع عشر، عد أنّ "البترون" هي مدينة بدلا من ريف . الفرنسي الشهير "**فولني Volney**"في كتابه الشهير "رحلة إلى مصر" أواخر القرن الثامن عشر. أما من حيث الطبيعة والمناظر، فتمكن العودة إلى شهادة الرحّالة، خاصّة ما كتبه "**لامارتينLamartine** " و "**جيرارد دي نيرفال Gérard de Nerval** "في أواسط القرن التاسع عشر، ففي كتاباتهم وصف دقيق للطبيعة الريفية[1].

ثانيا: صورة مصر في مرآة الرحالة الأوروبيين :

تعتبر مصر مصدر إشعاع حضاري بالغ الأثر فقد بزغت على أرضها و بين شعبها أهم الحضارات القديمة التي أضاءت بنورها باقي الحضارات، و الأمصار، فقد شهدت أرض الكنانة على ممر العصور العديد من الحضارات التي ساهمت كثيرا في صناعة اسم مصر العظيمة بتاريخها و ثقافتها العريقة. عراقة الحضارة الفرعونية التي ذاع صيتها بين الحضارات التي صنعت الإنسان بكل تفاصيله، و تمظهراته فقد استقطبت مصر هي الأخرى على غرار بلدان المشرق العديد من الرحالة الأوروبيين الذين تنوعت و تعددت اهتماماتهم محاولين من خلال رحلاتهم التعرف على مصر، و محاولة كشف أسرارها. أما عن الأهداف الحقيقية التي دفعت هؤلاء إلى القدوم إلى مصر فلا يمكن

1. ينظر: أنيس الأبيض، شهادة الرحالة الأجانب في الريف اللبناني من القرن السابع إلى القرن التاسع، موقع:http://alhayat.com ،/25/01/2015، 15:28 سا

رصدها بسهولة إلا أننا سنحاول الوقوف عند بعض الأهداف الجلية من خلال نصوص الرحالة نماذج الدراسة.

إن المتمعن في الرحلات التي كانت بين القرنين السادس عشر و السابع عشر سيدرك أن معظم هؤلاء رجال دين قدموا من القدس بعد تأدية فريضة الحج ثم نزلوا إلى مصر لزيارة بعض المزارات المسيحية و كما يرى فيصل حماد في قراءته لكتاب "إلهام ذهني" في كتابها الموسوم ب: رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر. * دون أن ننسى بقية الرحالة الذين كانت لهم اهتمامات، و توجهات: اجتماعية، و سياسية... و هذا ما شاهدناه في رحلات القرن الثامن عشر و التاسع عشر...

فكيف صورت النصوص الرحلية الأوروبية مصر؟

1 – رحلة بيرتون Burton

عرض **بيرتون** خدامته على الجمعية الجغرافيا الملكية بلندن في خريف 1802 بهدف الكشف عن المناطق غير المعروفة في خرائطهم و التي كانت تظهر بيضاء لا سيما المناطق الشرقية و الوسطى من جزيرة العرب ، و كان أن قوبل عرضه بحماس كبير تدعيما له.حيث كانت البدايات الأولى لرحلته من بلاد الحرمين " البلاد المقدسة عند المسلمين". فنقل العديد من الصور من خلال رحلته هذه.

أ. صورة الآخر المقهور اجتماعيا:

يصور نص "**بيرتونBurton**" الرحلي الآخر المصري في جانبه الاجتماعي إذ يرى أنه «...لخطأ جسيم أن ألا تحمل معك ملابس كافية، و الذين يسافرون كشرقيين

*. ينظر فصيل حماد، رؤية الرحالة الأوروبيين لمصر، http://www.albayan.ae/ 2015/02/2، 23:56 سا

يجب أن يكون معهم دائما حلة(ثوبا) فاخرة واحدة على الأقل لارتدائها في المناسبات المهمة، ففي بلاد الشرق ينظرون للشخص الذي يرتدي ملابس سيئة على أنه مسكين (عالة على غيره)...» [1] يبدو أن الرحالة يرى أن الشرقيين يؤمنون بالمظاهر أكثر من الباطن فهم يحتقرون الأشخاص الذين يرتدون لباسا رثا و يصنفونهم مع الأشخاص الضعاف الذين لا حول و لا قوة لهم.

ب.صورة الآخر الديني المحروم:

كما يتطرق بيرتون إلى صور تعكس موقفه من الآخر الديني إذ يرى أن شهر رمضان الفضيل«... يجعل المسلمين غلاظ الطباع و غير متسمين باللطف، و ذلك بسبب امتناعنا عن الطعام، و الشراب و التدخين... بل و امتناعنا عن ابتلاع ريقنا عمدا–طوال ست عشرة ساعة، و ربع ساعة... » [2]

يبدو أن صورة " بيرتون**Burton**" للآخر المصري المسلم صورة مبالغ فيها تنم عن موقف سلبي من الدين الإسلامي فهي رؤية تنفي قداسة مظاهر العبادة عند الآخر العربي المسلم لاسيما، و أنه لا يستند في كلامه إلى نص شرعي صحيح. و إن كان قد صور إخلاص المصري في قيامه بالعبادات ففي قوله: « تراعي الطبقات الدنيا و الوسطى شعائر هذا الشهر بإخلاص شديد رغم قسوتها، فلم أجد مريضا واحدا اضطر ليأكل حتى

1. رتشارد.بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر و الحجاز،تر: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، ج1، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1994، ص:35

2. المصدر نفسه، ص: 72

لمجرد الحفاظ على حياته رغم المعاناة الشديدة بسبب هذا الحرمان» [1]لموقف يظهر صورة نمطية سلبية للإسلام و تصوره على أنه دين قسوة و حرمان.

2 – رحلة جيرا ردي نرفال Gérard de Nerval:

لم تكن رحلة "**دي نرفال** " إلى الشرق أولى رحلاته. فقد كان بعد في أواسط العشرينات من عمره حين بدأ يتجول في أوروبا، وحده حيناً، وفي رفقة "**ألكسندر دوماس Alexandre Dumas** " في أحيان أخرى . أما عن رحلته إلى الشرق فقد كانت الانطلاقة من مالطا إلى القاهرة التي أقام فيها ثلاثة أشهر ليتوجّه بعدها إلى دمياط ومن هناك إلى بيروت، ماراً بيافا فعكا. ثم واصل تجواله نحو القسطنطينية حيث أقام بضعة شهور ليعود بعدها إلى مالطا فنابولي... وأخيراً حين وصل إلى باريس ، حيث عكف على كتابة رحلته التي نشرت في عدة أجزاء و عناوين قبل أن يتخذ العمل شكله النهائي في سنة 1851 تحت عنوان " **رحلة إلى الشرق**". [2]

أ. صورة المرأة المصرية:

تجلت صورة المرأة الشرقية لدى الرحالة الفرنسي " **جيرار دي نرفال**" انطلاقا من المكانة التي حضيت بها المرأة بعد مجيء فقد « ظل الناس إلى فترة طويلة يظنون أن الإسلام يضع المرأة في مكانة أقل بكثير من مكانة الرجل و يجعل منها على حد القول

1. المصدر السابق، ص: 72

2.ينظر: ابراهيم العريس، «رحلة الى الشرق» لجيرار دي نرفال: الشاعر مستشرقاً فضوليّاً، موقع: http://alhayat.com/، 2015/03/25، 20:52 سا

جارية تزوجها... وكان الأحرى أن يقال أن محمدا قد جعل المرأة تتبوأ مكانة أعلى بكثير مما كانت عليه من قبله...»[1]

يقر "**جيرا ردي نرفال**" من خلال هذا النص الرحلي بالمكانة السامية التي منحها الإسلام للمرأة. حيث يبدو معارضا لكل تلك الأفكار التي كانت ترى أن المرأة المسلمة مضطهدة في الإسلام _ كما دعا إلى ضرورة التخلي عن « الفكرة الأوروبية التي تمثل المسلمين كما لو كانوا لا يعتقدون أن للمرأة روحا... » [2]يتضمن هذا النص رؤية معارضة للفكرة الأوروبية التي تحمل في مضمونها صورة مادية للمرأة على أنها جسد بلا روح.

و تجدر بنا الإشارة إلى أن رؤية "**جيراردي نرفال**" لمكانة المرأة في الإسلام مضادة لمرجعياته الثقافية لان الوهم الغربي الخاص باضطهاد المرأة في المجتمع الإسلامي أو التعصب للرجال ضد النساء ليس الفكر الغربي المعاصر حيث « تحتل المرأة في المجتمعات الإسلامية مقاما متميزا في برنامج الغرب الخاص بصورة العدو الوهمي. وهذه أيضا فكرة نمطية ثابتة تعود جذورها إلى القرون الوسطى...»[3]

و يواصل " **جيرار دي نرفال** " حديثه عن الاحترام الذي تحظى به المرأة المسلمة في مجتمعها الإسلامي قائلا: « و حينما يستقبل السيد رجلا غريبا عن البيت في غرفة من غرف الحريم (بعد إبعاد النساء اللواتي تتكون منهن أسرته إلى غرفة أخرى) تقوم على

1.جيرار دي نرفال، رحلة إلى الشرق، تر: كوثر عبد السلام البحيرى،ج3، دار الكتاب العربي للنشر و الطباعة، دط، 1969، ص:229

2. المصدر نفسه، ص:229

3.محمد عابد الجابري، الإسلام و الغرب (الأنا و الآخر) الكتاب الأول، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، ط1، 2009، ص:78

خدمته باقي النساء إلا أن هن يكن دائما محجبات...» [1] نقل "**جيرارد دي نرفال**" صورة حية عن قيمة الحريم المسلم من خلال طريقة معاملة المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي الذي يرفض –بحكم تعاليم الشريعة الإسلامية– اختلاط المرأة بالرجل الأجنبي.

ب. صورة الآخر و ملامح الهوية:

يتشكل المجتمع المصري على غرار باقي المجتمعات الإسلامية من العديد من الأجناس البشرية باختلاف لغاتهم و دياناتهم، و على الرغم من هذه التركيبة الهجينة إلا "**جيرا ردي نرفال**" قد أشار إلى عنصر من عناصر الهوية العربية المتمثل في اللغة قائلا:«...لا يتكلم المصريون و الأقباط، و كذلك السوريون و اليهود الذين يقطنون مصر إلا اللغة العربية، فيما عدا استثناءات قليلة و هي كذلك اللغة الأجنبية التي يتكلمها الأجانب المقيمون في البلاد.» [2] يشير "**نرفال**" أن اللغة العربية هي اللغة السائدة في المجتمع المصري المتعدد الأجناس و الديانات ، و هذه الصورة تجسد ملمحا من ملامح الهوية العربية التي تعد اللغة أحد مكوناتها.

ج. صورة الآخر اجتماعيا:

أشار "**جيرا ردي نرفال Gérard de Nerval**" إلى الكثير من المظاهر الاجتماعية المتنوعة التي تجسد واقع المجتمع المصري الذي يختلف عن المجتمع الأوروبية بحكم منظوماته الثقافية و الحضارية، و هذا ما يتضح من خلال قوله: « ... و رغم أن المصري اجتماعي بطبعه إلا أنه نادرا ما يقيم الحفلات الكبيرة و لابد لكي يقيمها من

1. جيرار دي نرفال، رحلة إلى الشرق، تر: كوثر عبد السلام البحيرى، ج3، ص:246
2. المصدر نفسه، ص:273

مناسبات غير عادية كالزواج و مولد أحد الأطفال إلخ.» [1] نقل الرحالة صورة اجتماعية تضمر مقارنة بين المجتمع الأوروبي المتحرر من أية قيود، و المجتمع المصري الملتزم بضوابط الدين الإسلامي، و عادات و تقاليد الشعوب العربية.

كما يضيف مظهرا آخر تمثل في ظاهرة السحر الشائعة في أوساط المجتمعات الشرقية في قوله: « و كثير من الدراويش من الدرجات الأقل يعيشون من ممارسة أنواع السحر حول المنازل لإبعاد الثعابين عنها.» [2]تضمر هذه الصورة في باطنها تشويها للمجتمع المصري لأن ظاهرة السحر موجودة في كل مجتمعات العالم، فهي ظاهرة كونية لا تقتصر على المجتمعات العربية.الذين يمارسون بعض أنواع السحر من أجل الحصول على لقمة العيش.

3 – رحلة إمليا إدواردز Amelia Edwards:

إن الهدف من رحلة الإنجليزية "**إمليا إدواردز**" –التي كانت مولعة بنهر النيل على غرار الرحالة الرومانسيين– هو الدراسة المعمقة حول مصر، بعد أن كانت رحلتها مقتصرة على السياحة فحسب، حيث زارت القاهرة في 29 نوفمبر 1873 طلبا للسياحة و رغبة في التمتع بأجواء الشرق و قد بدأت رحلتها عبر نهر النيل بواسطة قارب خشبي صغير. بحيث تؤكد "**إميليا**" أن هناك الكثير من المسافرين في النيل على اختلاف جنسياتهم و على اختلاف مستوياتهم العلمية إلا أن هناك دوافع لهذه الرحلات حيث ترى

1. جيرار دي نرفال، رحلة إلى الشرق، تر: كوثر عبد السلام البحيرى، ج4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط،1988، ص:249

2. جيرار دي نرفال، رحلة إلى الشرق، تر: عبد السلام البحيرى، ج3، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، مصر، دط، 1969، ص:255

أن «...هنا مرضى يبحثون عن الصحة، و فنانون يبحثون عن الموضوعات و رياضيون مشتاقون لملاقاة التماسيح، و سياسيون يقضون الإجازات، و مراسلون صحفيون متأهبون للدردشة، و جامعوا تحف يبحثون عن البرديات و المومياوات و علماء لهم أهداف علمية من وجهة نظرهم...»[1]

تبين الرحالة أن المسافرين المتواجدين في مصر و غيرها من المناطق الشرقية قد جاءوا إلى هذه البلدان لأهداف معينة تنوعت بين السياحة و البحوث العلمية و المراسلات الصحفية و غيرها. و الشيء نفسه يقال عن "إمليا **Amelia** " التي هربت من الأجواء البريطانية الباردة بحثا عن «طقس أفضل هكذا حسب الألفاظ المستخدمة و بدون تزويق»[2] فقد وجدت نفسها قد تحولت من سائحة إلى عالمة مهتمة بالآثار و تاريخ المنطقة إذ نقلت عن مصر في جوانب مختلفة.

أ. سحر الشرق و الآخر الملتزم:

لطالما كان الشرق بسحره و غرابته ملاذا للرحالة الأوروبيين، فقد نقلت "**إميليا Amelia** " إعجابها بالصحراء المصرية عبر نصها الرحلي، و هي تقف أمام الهرم الأكبر الذي يرتفع «... بكل ضخامته و عظمته غير المتوقعة فوق رأس المشاهد، يكون التأثير مفاجأ مثلما هو رائع، إنه يحول دون رؤية الأفق، كما يحول دون رؤية الأهرام الأخرى،إنه يحول دون كل شيء فيما عدا الإحساس بالروعة و الغرابة.»[3] فالصورة التي

1. إميليا إدواردز، رحلة الألف ميل، تر:إبراهيم سلامة إبراهيم،الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط،1997، ص: 24،23
2. المصدر نفسه، ص:25
3. المصدر نفسه، ص:37،36

نقلتها "**إميليا Amelia** " تعبر دون شك عن موقف الإعجاب بالشرق، وما يحويه من سحر و إغواء لزائريه.

ولعل أهم شيء شد " **إميليا Amelia** " هو طيبة سكان المنطقة الذين لم تنصفهم كتابات بعض السياح حيث تقول "**إمليا**" معبرة عن امتنانها لهؤلاء لحسن خلقهم و طيبتهم «...و قال لنا الأعراب:(عودوا مرة ثانية إن الأعراب الطبيبين سيجعلونكم ترون كل شيء)... لم نجد سببا يدعونا للشكوى منهم الآن و فيما بعد...و كانوا يتحولون إلى حالة الصمت مثل المصابين بالخرس، عندما يجدوننا نريد الصمت.و كانوا يرضون بالبقشيش المتوسط عن الانصراف.» [1]

تبدي "**إميليا إدواردز**" موقفها من الآخر المصري في التزامه الديني، و الأخلاقي، و هو ما يعبر عنه قولها أيضا: « و لم نكن نعرف حينذاك أن المسلم الصالح يتصف بالتقوى خارج المسجد مثلما هو داخله، أو أن تلك هي عاداته في أداء الصلاة في أوقاتها المحددة بصرف النظر عن مكان أو كيفية انشغاله... حتى أن راكب الجمل يتحتم عليه أن ينزل عنه و يسجد ...كما أن التاجر ينشر سجادة الصلاة الخاصة به على الأرض متجها بوجهه نحو الشرق...» [2] يبدو أن الرحالة قد وجدت أثناء رحلتها إلى مصر ما يخرق الصورة النمطية السائدة عن العرب المسلم لدى الأوروبيين، و التي تمثل في أغلب الأحيان استهتاره.

1. إميليا إدواردز، رحلة الألف ميل، تر:إبراهيم سلامة إبراهيم ، ص:40
2. المصدر نفسه، ص:43

ب.صورة المدينة بين جاذبية العمران الإسلامي و سحر الآثار الفرعونية:

أبدت "**إميليا Amelia** " إعجابها بالأماكن المقدسة ذات النمط الإسلامي الذي بنيت وفقه مساجد القاهرة حيث ترى أن مسجد السلطان حسن « أجمل مساجد القاهرة، و ربما أيضا أجمل مساجد العالم الإسلامي، لقد بني أثناء تلك اللحظة السعيدة التي بدأ فيها الفن الإسلامي في مصر يتوقف عن الاحتواء أو التقليد، و يستنبط لنفسه طرازا معماريا أصيلا من بين العناصر الغير متجانسة للصروح الرومانية و القبطية المبكرة...» يبدو أن المساجد قد بنيت وفق النمط الإسلامي الذي يختلف كثيرا عن بقية الأنماط الأخرى لما له من خصوصيات تميزه عن الصروح الرومانية و كذا القبطية فلكل مكان مقدس نمط عمراني معين.

4 – رحلة الأمير رودلف Prince Rudolf:

زار الأمير النمساوي "رودلف **Prince Rudolf**" مصر في أواخر عهد الخديوي إسماعيل، و قد سنحت له الفرصة أن يقطع مصر من أدناها إلى أقصاها و كان هدفه من هذه الرحلة « منصبا –غالبا– على وصف الظواهر الجغرافية و الحياة الحيوانية و النباتية، و وصف الآثار و التعرض لتاريخ المدن، و التغني بجمال الطبيعة و الإشارات لأصول السكان (إشارات انتربولوجية مع إشارات ذات دلالة سياسية و نفسية).».[1]فقد أشار إلى الآثار الموجودة فيها حيث زار الإسكندرية و سواحل القاهرة وصولا إلى صعيد مصر، مما مكنه من وصف كل ما شاهده في رحلته النيلية هذه مبديا

1. ردولف، رحلة الأمير ردولف إلى الشرق(مصر و القدس)،تر: عبد الله عبد الرحمان الشخ، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1995 ، ص:08

إعجابه بالمناظر التي شاهدها هناك و قد اتجه بعد ذلك إلى حيفا و من ثم زار القدس و أبدى إعجابه بالتسامح الديني هناك كما عرج على الحياة البدوية حول نهر الأردن.

أ. الآخر المختلف اثنيا:

يقدم الأمير "**رودلف Prince Rudolf**" وصفا للعربي قائلا: «...فالعربي الحقيقي داكن اللون، و له ملامح نبيلة، و جميلة،و شكله رقيق لكنه مفعم رجولة، و العربي _وإن كان أرقى من اليهودي بكل المقاييس_ إلا أنه يشبهه بشكل واضح لا تخطئه عين...»[1]

يصف الأمير "رودلف **Prince Rudolf**" العربي بالداكن اللون نظرا لطبيعة المناخ كما أنه يشيد بشخصيته المفعمة بالرجولة مقارنة مع شكله وبنيته الضعيف ة فالرحالة يرى أن العربي أرقى من اليهودي بكل المقايي س رغم ذلك التشابه الفيزيولوجي بينهما، و هي صورة لا تعبر عن الاختلاف الفيزيولوجي فحسب بل تضمر تمييزا عنصريا الناتج عن الاختلاف العرقي بين الإنسان الشرقي و الإنسان الأوروبي الغربي الأبيض الذي عد نفسه مركز الكون و صانع التاريخ.

ب.صورة الآخر المتماهي مع الأنا:

و يصور الأمير "**رودلف Prince Rudolf**" الآخر المصري في صورة يذوب فيها المجتمع المصري بم فيه –جانب العمران–في الأنا الأوروبية باعتبارها المركز و الآخر المصري التابع و المقلد، و تتجسد هذه الصورة في قوله: « و بعد أن عبرنا هذه الشوارع الشرقية وصلنا إلى الجانب الأوروبي من المدينة(الإسكندرية)،حيث الشوارع العريضة، و المنازل الجميلة على الطراز الأوروبي، و المحلات الواسعة..إن هذه المدن

1. المصدر السابق، ص:58

تحذو حذو العمارة الغربية و تحاكيها محاكاة كاملة، فأنت تحس في كل خطوة تخطوها بوجود الغريب الذي يسعى لوضع أثره على العالم الأجنبي.»[1]

و لعل هذه الصورة تعبر عن نفسها في البلاد المصرية غير أن ناقلها وجد فيها ما يدعم المركزية الأوروبية باعتبارها مركزا للتحضر، و التمدن فرسم هذه الصورة يتطابق مع رغبة الرحالة الأوروبي التي تجسد نزعة التعالي الأوروبية فهي صورة استعلائية و تبخيسية لغيرها.

5 – رحلة نيكوس كازنتزاكيس Nikos Kazantzakis:

كتب " **كزانتسكيس Kazantzakis**" يوميات رحلاته التي يتكون منها كتابه الموسوم بـــ: "الترحال" في جريدة "اليغثيروس لوغوس **Oletheros Logos** " اليونانية بين عامي 1926 و 1927 بعد أن دفعت له الجريدة تكاليف الرحلة حتى يزور البلاد في أعياد الفصح عام 1926، و كي يزور مصر في السنة اللاحقة.حيث نشرت الطبعة الأولى سنة 1927 و التي لم ترض **كزانتسكيس** لأنها كتبت باللغة الإغريقية الصافية و بصيغة و لغة الصحافة الفجة ما استدعى طبعة ثانية منقحة 1961 بعد وفاة الكاتب. [2]

1. المصدر السابق، ص: 59

2.ينظر: نيكوس كازنتزاكيس، رحلة إلى مصر الوادي و سيناء، تر: محمد الظاهر.مينة سمارة، سلسلة كتاب أدب و نقد، القاهرة، ط1،1991، ص:13

أ. صورة الآخر المقموع/ التابع:

صور الرحالة " **كزانتسكيس Kazantzakis**" بعض المشاهد الاجتماعية التي تعكس واقع الطبقة المقهورة كما في قوله: «لقد رأيت... رأيت الحدادين أمام النار و قد تجعدت أصابعهم مثل جلد التمساح...و هم يواصلون العمل في الليل في الوقت الذي يتوجب عليهم فيه أن يخلدوا للنوم... رأيت النساج يعاني في معمله ركبتاه تنغرسان في بطنه يتنفس الهواء الملوث و عليه أن يرشو الحارس كي يستطيع رؤية ضوء النهار...»[1]

تكشف هذه الصورة حجم المأساة الاجتماعية التي يعيشها الآخر بكل تفاصيلها، فهو يصف أحوالهم و أجسادهم المنهكة نتيجة الأسى، و الفقر كما هو الحال بالنسبة للإسكافي «... الذي يستجدي طوال حياته حتى أنه يأكل الجلد الذي يعمل به كي لا يموت من الجوع... هذا هو النغم المعذب الذي كان ينبثق من مصر كلها.»[2]

فصور المعاناة مع الفقر و الظروف الصعبة لا تكاد تنتهي، فهي صور تجسد ما آل إليه المجتمع المصري من اضطهاد و فقر.

لا يتوقف الرحالة عند هذا الحد حيث يعبر عن غضبه الشديد من القادة الذين كانوا يستغلون ما تجود به أيدي الفلاحين من خيرات مثلما كانت السلطات الإقطاعية في أوروبا. فالقادة «... الذين ساقوا الفلاحين إلى الحقول كالحيوانات و قالوا لهم احفروا ازرعوا و اسقوا و نحن سننهب الخيرات.» [3] ينقل لنا الرحالة صورة من صور خضوع الآخر للسلطة، حيث يرى أن سبب هذه المأساة التي يعشها الشعب إنما كانت بسبب تواطؤ

1. المصدر السابق، ص: 20
2. المصدر نفسه، ص: 21
3. المصدر نفسه، ص: 36

المصري مع القادة، و الذي «... لم يجعل الحرية غاية له أبدا، ففي حياته السياسية كان عليه أن يطيع القادة، و الفنون كان عليه أن يتبع القوانين الثابتة، و الفكر كان يتبع تقاليد العصور السابقة...» [1] فهذه الصور سلبية في مضمونها، و مبالغ فيها إذ تصور الآخر المصري في حالة خضوع تام للسلطة، و للتقاليد الأسلاف، و في حالة خضوع تام، تبعية دائمة. فهو لا يصنع حريته، و إنما يصوغها الآخر السلطوي.

لا تقتصر تبعية الآخر في نظر الرحالة على سلطة القادة فحسب، و إنما هي تبعية للغرب باعتباره مركزا حضاريا «فإرادة الهيمنة مسوغها هو الرغبة في التفوق وضرورة أن يكون هنالك غالب، و مغلوب أو متفوق، و متخلف. فكل حضارة راقية تنشئ علاقة تراتبية أو هرمية تستعبد من خلالها ما عداها من الثقافات المهمشة لتنفرد بالتفوق، و القوة في تجلياتها السياسية و العلمية والاقتصادية، و العسكرية فمن طبع المتفوق أن يحافظ على تفوقه، و تقدمه المادي، و الفكري ومن طبعه أيضا أن يتمركز لتحوم حوله الهوامش الثقافية على سبيل الإذعان، و الاعتراف بالشوكة، و العظمة، و أن يسط سيطرته على جميع الأطراف التي يتحكم فيها أو يصبو إلى امتلاكها.» [2]

وهذا ما يتضح من خلال النص الرحلي " **لكزانتسكيس Kazantzakis**" حيث ينقل صورة سلبية مفادها إلغاء الآخر الشرقي، و نفي وجوده الحضاري، و التاريخي، و هذا ما يتجلى في قوله: «صحيح أنه لا توجد حضارة شرقية الآن، و صحيح أن الإنسان الشرقي بسيط و ساذج و أن الزمن قد تجاوزه و هو غير متكيف مع الحياة المعاصرة، و

1. المصدر السابق، ص: 42

2.محمد شوقي الزين، الذات والآخر: تأملات معاصرة في العقل و السياسة و الواقع، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2012، ص:09

لكن من أجل أن يبدع هذا الشرق حضارته الخاصة، فإنه يتحتم عليه أن يربط نفسه بفعل الضرورة بالغرب.» [1] يبدو الرحالة غارقا في الذاتية عندما ينكر الحضارة الشرقية التي استسقت منها كل حضارات العالم بما في ذلك الأوروبية حيث يرى في الشرق تابعا للغرب، و هذا ما يعني التأكيد على المركزية الأوروبية التي تعتبر نفسها نقطة ميلاد كل حضارات العالم .

ب. صورة المرأة كآخر مدنس:

لا يقف الرحالة عند تصوير المشاهد الإثنوغرافية و الاقتصادية بل يتعداها إلى المشاهد الأخلاقية، و هو يكشف الستار عن المسكوت عنه و هن نساء البغي اللواتي وصفهن قائلا: « كانت هناك نسوة عاريات الصدور يجلسن، أو يقفن، أو يرقصن على عتبة كل باب، ينادين على الرجال،...وخلفهن فانوس من فوانيس البترول الصغيرة وسرير واسع يمتد من طرف الغرفة إلى طرفها الآخر...و كانت هناك فتاة شابة و تضع أحمر الشفاه، و ذات عينين لوزيتين رائعتين...» [2]

يرى الرحالة أن هذه الفئة من النسوة كانت تتخذ من بيوتها مكانا لممارس ة الرذيلة وهن يقفن أمام الأبواب قصد استدراج الرجال طبعا بعد أن يتزين، و يلبسن لباسا مغري و يواصل الرحالة سرد الصور المدنسة قائلا: «...أما النسوة فنسوة قذرات مثنيات القامة كحيلات العيون يسرن صوب النهر، كي يملأن جرارهن الفخرية و يضعنها على المدورة الموضوعة على طرف رؤوسهن الصلبة المغطاة تماما كما تقتضي الأسس القديمة.» [3]

1. نيكوس كازنتزاكيس، رحلة إلى مصر الوادي و سيناء، تر: محمد الظاهر.مينة سمارة، ص: 76
2. المصدر نفسه، ص: 35
3. المصدر نفسه، ص: 22

و ينبغي الإشارة إلى أن صورة الرجل المسلم العنيف و البربري المتوحش، و المرأة المسلمة، و الحسية السلبية يمثلان مجتمع الشرق في الفهم الغربي، إنهما يندمجان معا لينتجا صورة ملموسة للجنسية و الاستبداد و من ثما الدونية – على حد قول ضياء الدين ساردارا– إذ « يولد هذان المبدآن المتعارضان توقعات خاصة بالشرق لم يجر إشباعها أبدا معطية زخما داخليا لصور متجذرة تماما في الرغبات، و الخيالات المنحرفة و المشوهة.» [1]

و لعل هذه النظرة الدونية هي ما تجسد في النص الرحلي فصورة المرأة المدنسة تمثل جانبا محظورا في المجتمع المصري لأن البغاء من الطابوهات التي لا يمكن النقاش فيها باعتبار أن المنظومة العقائدية و الثقافية للأخر المصري حرمت مثل هذه الممارسات. لذلك فنقل هذه الصور من طرف الذات الغربية لن نستطيع وسمه بالفعل البريء.

ج. صورة الآخر المتحرر اقتصاديا:

يصور الرحالة جانبا إيجابيا للآخر المصري يخص التطور الذي حققه في المجال الاقتصادي على الرغم من أن الاحتلال الانجليزي قد جاء «... بالقوانين و نظم الخدمات، و صمم على العمل من أجل إنجاز نظام اقتصادي جديد لكن الشعب المتنور كان ينظر دائما للغرباء بنفاذ صبر، و كان يريد أن يتخلص منهم ، كي يصبح سيد وطنه.» [2] يبدو أن الاحتلال الإنجليزي لم ينجح في كسب ود السكان الأصليين الذين لم يهتموا بقوانين النظام الاقتصادي الذي كانت تسعى بريطانية إلى إقامته بمصر. فنظرة الأهالي كانت

1.ضياء الدين سارادارا،الاستشراق: صورة الشرق في الآداب و المعارف الغربية، تر: فخري صالح، هيئة أبوظبي للسياحة و الثقافة، الإمارات، ط1، 2012،ص:95

2. نيكوس كازنتزاكيس،رحلة إلى مصر الوادي و سيناء، تر:محمد الظاهرو مينة سمارة،ص: 68.67

نابعة بروح التحرر و الانعتاق من الاستعمار و التخلص منه بكل الطرق ما يعني أن المصريين قد تحرروا من الفكر القديم. و قد تجلت صورة هذا التحرر في صورة مصر المعاصرة حيث يقول الرحالة: «انظروا إلى مصر مثلا، في فترة مبكرة كان الأجانب هم المؤهلون لاستغلال الثروة، في إدارة مشاريع مصر التجارية...أما الآن فإن المواطنين المصريين، قد أخذوا يحلون محل الأجانب في كل مظاهر الحياة الاقتصادية، و هم يديرون ذلك بكفاءة عالية...»[1]

يتضح من خلال هذه الصور قناعة المصريين بضرورة تسييرهم الذاتي لمشاريعهم و استغلالهم لثرواتهم التي كانت تُسير، و تُستغل من طرف المستعمرين للبلد فقد أصبح بإمكان الأهالي أخذ أماكن الأجانب و الاعتماد على أنفسهم في تسيير مختلف الموارد و المشاريع الاقتصادية ما يعني أن هذه الشعوب المستضعفة تعي جيدا ما تفعله و تؤمن بالاستقلال في جميع الميادين السياسية، و الاقتصادية، فقد كانت الصناعة قديما «... صناعة بدائية فالصناعات الخشبية، و الحديدية، و النحاسية و القطنية كانت تعمل بأدوات تعود إلى القرون الوسطى، أما الآن فقد قام المواطنون باستيراد الآلات الأوروبية و بنوا المصانع و اتبعوا الوسائل الهندسية المتقدمة.»[2]

يشير الرحالة إلى التطور الذي مس الصناعات المنتشرة في البلد و التي كانت في مجملها تعتمد على وسائل و أدوات تعود إلى القرون الوسطى حيث طور السكان المصريون صناعاتهم بعد استيراد آلات حديثة من أوروبا و بناء مصانع تعتمد على وسائل حديثة أكثر فاعلية مقارنة مع سابقتها، و تماشيا مع متطلبات العصر. و هي صور من واقع المجتمع المصري.

1. المصدر السابق، ص: 74
2. المصدر نفسه، ص: 75

6 – جوزيف بيتس Joseph Bates

ترجع أهمية رحلة جوزيف بيتس إلى مصر و مكة سنة 1680 كونه أول رحالة إنجلزي يزور البقاع المقدسة، حيث وصف طريق الحج الغربي أو درب الحجاج (البري و البحري) من بلاد المغرب – مرورا بمصر– كما تجدر الإشارة إلى أن جوزيف بيتس يعد أصغر رحالة، إلا أن ذكاؤه و هوسه بالمعرفة دفعه إلى هذه الرحلة و هو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره مثلما أشار "بيرتون **Burton**". حيث عمل بحارا في هذه السن المبكرة...وقد قضى "بيتس **Bates** " خمسة عشر سنة في بلاد المسلمين معظمها في الجزائر...[1] و قد نقل بعض الصور لمصر أثناء مروره بها إلى مكة حيث تمت رحلته في ظروف صراع لا يزال المستعمر آنذاك في منطقة البحر المتوسط.

أ.صورة الآخر غير الأخلاقي:

نقل الرحالة صورا عن المجتمع المصري تجسد الآخر في صور غير أخلاقية في قوله: « و هم يسيئون معاملة الغرباء فمن الخطورة أن يسير الغريب في الشوارع بعد إيقاد الشموع، بل لقد علمت أنهم ينقضون على الغريب في رابعة النهار و يسلبونه و يضربونه ضربا مبرحا قد يفقد حياته...و أهل مصر–خاصة أهل القاهرة– يتسمون بالفظاظة و الانفعال، و هم ذو لسان سليط كالداعرات لكنهم قلما يهتمون بالدخول في معار، و إن حدث فإنهم يضربون بأكفهم (يصفعون) و ليس بقبضاتهم. وهم بارعون في الاحتيال و الغش، خاصة مع الغرباء الذين لا يعرفون عملتهم، ولا يعرفون أساليبهم في البيع و الشراء.»[2] يتجسد الآخر المصري في نظر الرحالة "بيتس **Bates** "في صفات غير

1. جوزيف بيتس، رحلة جوزيف بيتس (الحاج يوسف) إلى مصر و مكة المكرمة و المدينة المنورة، تر: عبد الرحمان عبد الله الشيخ،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،دط،1995،ص:07 و ما بعدها.
2. المصدر نفسه، ص: 38

حميدة كالنهب، و السلب، و الغش، و الاحتيال، و لا نشك في كون هذه الظواهر الاجتماعية موجودة في جميع المجتمعات كما لا نجزم أيضا في كون الرحالة قد نقل صورة صحيحة في جميع جوانبها.

تتشكل الصور الذهنية للآخر انطلاقا من سياق القيم الدينية و الأخلاقية و «...ليست المعرفة وحدها هي التي تضفي تقديرا على الآخر، و لا الجهل بذاته هو الذي يحبسه في نمط دوني، إنما الرغبة الواعية و غي الواعية في تحديد مكانة الآخر دون المكانة التي تكون عليها الذات، و تمثل هذه الرغبة ضربا من القوة المتنامية داخل سياق ثقافي مشبع بالتمركز حول الذات ... فتتركز مع الزمن للذات صورة نقية استعلائية شفافة، أما الآخر بفعل تلك القوة فيصبح مرمى للرذائل،و الخصال الذميمة فصورته لا تغادر مستوى الدونية.». [1] و لعل هذه النظرة الغربية للآخر المصري ليست نظرة فردية تخص الرحالة لوحده و إنما هي صورة مندسة في اللاوعي الجمعي الغربي في موضعته للآخر موضع النقيض السلبي بالنسبة للأنا أو الذات الغربية.

ت. صورة الآخر العادل:

صور الرحالة "**بيتس**Bates " فضلا عن الصور السلبية التي نقلها عبر نصه الرحلي بعض الصور الايجابية للآخر المصري في قوله: « و مع أن أهل القاهرة مولعون بغش الغرباء و خداعهم فإنهم يعاقبون بصرامة من يطفف الكيل و الميزان... فإذا

1.عبد الله إبراهيم،المركزية الإسلامية، الدار العربية للعلوم، بيروت، دط،2010، ص: 153

ما ثبت أن وزنه أقل من الوزن القانوني تم سحبه –أي الخبز– و توزيعه على الفقراء و معاقبة الخباز بضربه بالفلكة (الفلقة) على قدميه العاريتين بشدة...»[1]

يتضح من خلال هذه الفقرة من النص الرحلي صورة الآخر العادل الذي يحترم المبادئ و القوانين التي جاءت بها الشريعة الإسلامية و ما يمكن قوله عن رؤية الرحالة "**بيتس Bates**" للآخر المصري إنه و إن أشار إلى الجانب غير الأخلاقي الذي اصطدم به أثناء مروره بمصر فانه لم يفصل الجوانب الأخرى التي تجسد صور ايجابية.

و مجمل القول إن النصوص الرحلية – نماذج الدراسة– التي مثلت صورة الشرق (المشرق) كان موجهها الأساسي الجانب الإثني (العرقي) و الجانب الديني لتشكل الصورة التي تلبي رغباته الثقافية، فليس من المنتظر البحث عن نقاء الصورة نقاء تاما في هذه النصوص الرحلية التي صورت الشرق، فلطالما أنتجت الذات الغربية صورا استعلائية لنفسها انطلاقا من العرق و الدين لإشباع غاياتها التي تضمر الرغبة في التمركز لإنتاج صورة نمطية دونية و مشوهة للآخر الشرقي.

1. جوزيف بيتس، رحلة جوزيف بيتس (الحاج يوسف) إلى مصر و مكة المكرمة و المدينة المنورة، تر: عبد الرحمان عبد الله الشيخ، ص:39

الفصل الثاني

المغرب في عيون الرحالة الأوروبيين
- الجزائر أنموذجا-

- أولا: صورة المغرب العربي في عيون الرحالة أوروبيين

1- الرحلة إلى تونس و الصورة الأخلاقية للآخر

2- الرحالة إلى ليبـــــيا و صورة الآخر المتمرد

3- الرحلة إلى المغرب الأقصى و صورة الآخر المعادي لليهود

- ثانيا: صورة الآخر الجزائري في مرآة الرحالة الأوروبيين

تمهيـــــد:

شكلت أقطار المغرب العربي هي الأخرى إحدى أهم محطات الرحالة الأوروبيين إلى العالم العربي، أين توافد على المنطقة العديد من الرحالة الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم و تنوع لغاتهم. وقد حظيت مذكرات و تقارير هؤلاء الرحالة و انطباعاتهم باهتمام الباحثين الأوربيين، و العرب لما تقدمه من معلومات و تفاصيل عن الآخر على الرغم من تباين اتجاهات هذه الرحلات و تضارب أهدافها.

فقد زار بلاد المغرب العربي الكثير من الرحالة الأوروبيين المهتمين بالاستكشاف و معرفة الآخر العربي الذي طالما وصف بالمجهول، فأصدر هؤلاء الرحالة الكثير من المؤلفات التي تصف واقع المغرب العربي بكل تفاصيله الاجتماعية و السياسية، و الاقتصادية، فقدموا صورة عن الحياة العربية الثقافية و الدينية. ومن بين الرحالة الذين زاروا المنطقة و دونوا ملاحظاتهم نذكر على سبيل المثال لا الحصر المبشر الألماني "**إيفالد.Saint_Evald** ،"**غي دو موبسان guy de maupassant** " **هاينريش فون مالتسان .Heinrich Von Maltzan** " ، " **إيزابيل إيبرهارت Isabelle Eberhardt**"، "جيرهارد رولفس **Gerhard Rohlfs** " كما تجدر الإشارة إلى أن المنطقة قد شهدت تواجدا كثيفا للرحالة الألمان مقارنة مع باقي الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة فيما بعد.

فكيف تجلت صورة المغرب العربي في نظر الرحالة الأوروبيين بصفة عامة و الجزائر على وجه الخصوص باعتبارها آخرا مختلفا عنهم في مرجعياتهم الإيديولوجية والثقافية والحضارية ؟

أولا: صورة المغرب العربي في عيون الرحالة أوروبيين:

1 –الرحلة إلى تونس و الصورة الأخلاقية للآخر:

مثلت تونس كبقية بلدان شمال إفريقيا محطة مهمة من المحطات التي توقف عندها الرحالة الأوروبيون وخاصة الألمان حيث أبدوا اهتماما كبيرا بها، فقدوم الرحالة الأجانب إلى الساحل الإفريقي الإسلامي كان لأهداف متعددة خاضعة لمرجعيات الرحالة أنفسهم، إذ كان القصد من هذه الرحلات فك بعض طلاسم هذه المناطق التي طالما وصفت بالمجهولة في كتب تاريخ الأنا الأوروبي فهذه الرحلات كانت تهدف إلى تحري كل المعلومات المتعلقة بالآخر من خلال تتبع جميع أنماط حياته الثقافية و الاجتماعية، و الاقتصادية، و هذا لعدة أسباب لعل أهمها إمبريالية.

إذ زار تونس العديد من الرحالة الذين اختلفت دياناتهم و جنسياتهم، و كذا أهدافهم من هذه الرحلات و التي تزاوجت بين المصرح بها و المسكوت عنها (المضمرة).حيث نذكر من بين هؤلاء الرحالة: " **الأمير بوكلير موسكاو .-Prince Bclair Muskau**" و" **ج.أو.هابنسترايت.J.E Hebenstreit** "، " **هاينريش بارت . Heinrich Barth**" والمبشر "**إيفـــالد.Saint_Evald**".

وينبغي الإشارة إلى بعض النصوص الرحلية – على سبيل التمثيل –التي تصور لنا جانبا من الجوانب الأخلاقية للشعب التونسي نذكر منها ما جاء في كتابات الرحالة: " **ج.أو.هابنسترايت.J.E Hebenstreit** " ، " **هاينريش بارت. Heinrich Barth**"،"**المبشر إيفـــالد. Saint_Evald** ".

ترجع أهمية الرحلة التي قام بها المبشر الألماني "**إيفـــالد Evald** " إلى تونس و طرابلس إلى تلك المعلومات الاثنولوجية، و الاجتماعية، و الانتربولوجية التي تضمنها الكتاب.و لعل الشيء الملفت للانتباه هو سبب مجيء الرحالة إلى تونس حيث كان الهدف من رحلته هو التبشير للديانة المسيحية. و قد قدم من الجزائر التي كان يقيم فيها كمبشر منذ سنة 1832 إلى تونس سنة 1833 أو 1834. حيث مضى "**إيفـــالد Evald** " في عمله كمبشر بتونس تحت حماية القنصل الانجليزي "**توماس ريد Thomas Reid**" ... وقد سنحت الفرصة لإيفالد لكي يزور العديد من الأماكن التونسية: نابل، و الحمامات، و سوسة، و المنستير، و المهدية، و صفاقس و قابس،...[1]

نقل المبشر " **إيفـــالد Saint_Evald**" مشاهد مختلفة " تعد صورة عن أخلاق شعب إحدى المدن التونسية في قوله: «و أشار عليا مسلم أعرف بخادم آخر فوافقت في الحين. و هو ينتمي إلى قبيلة (الورقلية)...و هم قوم يمتازون بالثقة و الوفاء و يحظون في تونس بسمعة طيبة للغاية. »[2] ينقل الرحالة صورة أخلاقية فاضلة عن سكان قبيلة "الورقيلة" الذين وصفهم بالأوفياء، و أصحاب السمعة الطيبة لكونهم موضع ثقة.

و كذلك كانت زيارة الألماني " **ج.أو.هابنسترايت. J.E Hebenstreit** " إلى تونس، و الجزائر، و حتى طرابلس في النصف الأول من القرن الثامن عشر.عندما أشار إلى لباقة التونسيين، و لكن انطلاقا من منظور الآخر المتعالي الذي يمثل المركزية العالمية للثقافة، و الحضارة، حيث يقول في هذا الشأن: « و يتصف أهل

1. ينظر: إيفـــالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى ليبيا في سنة 1835، تر: منير الفندري، بيت الحكمة، قرطاج تونس، دط،1991، ص: 10،11،12
2. المصدر نفسه ، ص: 18

تونس عادة باللباقة فهم مهذبون جدا لاختلاطهم بالأوروبيين، و كبار القوم الذين أوكلت تربيتهم في الصغر لأسرى المسيحيين...»[1]

يتضح من خلال ما ورد رؤية الرّحالة القائمة في ظاهرها على التفاعل و التثاقف بين التونسيين والأوروبيين ولكنها تضمر صورة سلبية في باطنها توحي بالتبعية والذوبان في الذات الأوروبية المتعالية بمركزيتها وكينونتها، خاصة و قد ربط الرحالة " **ج.أو.هابنسترايت.J.E Hebenstreit** " كل تصرف لبق أو مهذب يصدر عن العربي بالحضارة الأوروبية التي يعدها المعلم الوحيد في العالم،على الرغم من أن مثل هذه المواقف ليست بالغريبة عن العرب.

أما الرحالة الألماني " **هاينريش بارت Heinrich Barth**" الذي أقام بتونس ما بين 1845 و 1846 مارا بالمغرب الأقصى و السواحل الجزائرية، [2] فقد وصف الشعب التونسي بالمسالم مقارنة بالشعبين المغربي، و الجزائري اللذين رأى أنهما ليسا مسالمين.« و لعل ما يزيدك حسرة هو أن الشعب هنا يمتاز كل الامتياز عن شعوب المغرب والجزائر، فهو مسالم و لطيف.»[3]

كما تجدر الإشارة إلى أن الصور التي نقلها الرحالة الأوروبيين عن أخلاق سكان المنطقة تتراوح بين التسامح و العداء و هذا راجع للأيديولوجيات التي يتبناها الرحالة الأوروبيون فمجيء "**إيفالد Evald** " إلى تونس كمبشر لا يلغي أبدا التعصب لمنظاره العقائدي التبشري خاصة و هو يصور مسلمي المنطقة على أنهم أشخاص لا

1. ج.أو.هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر و تونس و طرابلس، تر: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي،تونس، دط، دت، ص: 118
2. هاينريش بارت، سبع رسائل مخطوطة لـــ: هاينريش بارت عن رحلته إلى تونس 1845–1846 ، تح و تر: منير الفندري، بيت الحكمة، تونس، دط،1987، ص: 9.8.7
3. المصدر نفسه، ص: 25

يحترمون الحرية الدينية للآخر اليهودي قائلا: «... يوجد هنا أكثر من عشر أسر يهودية تعيش كلها في فقر مدقع ما عدا أسرة الحاخام الأكبر، و جميعها عرضة لكراهية المسلمين البالغة و اضطهادهم.» [1] يصور المبشر الألماني المسلم التونسي على أنه شخص يكن العداء لليهود و يبالغ في اضطهادهم كإشارة منه إلى أن اليهودي يعاني من بطش المسلمين.

لا يكف المبشر "**إيفـــالد Evald** " عن وصف المسلمين بالمتعصبين فحسب بل نجده يصف سكان مدينة سوسة بأبشع الصفات التي تنم عن حقد دفين للمسلمين قائلا: « و لم يؤثر الإسلام في هؤلاء البشر كثيرا أو أنهم لم يؤثر فيهم قطعا و لم يغير شيئا من عاداتهم الراسخة و فظاظتهم الفطرية، و قساوتهم و لا إنسانيتهم فقد ظلوا على حالهم كما كانوا قبل آلاف السنين و في الحقيقة ليست لهم ديانة فكل معرفتهم على الصعيد الديني تنحصر في الشهادتين... و هم يجدون في هذا كل القناعة.» [2] يظهر المسلمون دوما في الصور الأوروبية أنهم لا إنسانيو ن غلاظ لا تحكمهم ديانة و لا قانون و هذه الصورة النمطية ظل الأوروبيون يتوارثونها جيلا بعد جيل. انطلاقا من « نفي الآخر وتنصيبه عدوّا يصبح ضرورة ليتعرّف الغرب على نفسه ،فكلّ معرفة تمرّ من خلال الآخر،والآخر الآن هو الإسلام الذي يُضمّنه الغرب كل أنواع السلب ليجعل منه أضحية ممتازة ... بهدف تحديد هوية الغرب تحديدا إيجابيا ... إنّ الإسلام كما تصوره أجهزة الإعلام الغربية هو مصدر لكلّ الشرور ولكلّ ما يخاف منه الغرب.»[3] إن المتمعن في هذه النصوص الرحلية الأخيرة للمبشر "**إيفـــالد Evald** "

1. إيفـــالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى ليبيا في سنة 1835، تر: منير الفندري، ص: 24
2. المصدر نفسه، ص: 38
3. زكي ميلاد وتركي علي الربيعو، الإسلام والغرب: الحاضر والمستقبل، دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان، ط2، 2001، ص:35.

سيدرك حتما أن ما صوره الرحالة يعكس ذلك العداء الذي خلفته الحروب الصليبية بين الإسلام، و المسيحية، فضلا عن هذا فإنها تبين أن المنظور الذي يتبناه الرحالة كان يهدف إلى نشر المسيحية، و لو تطلب ذلك الإساءة للإسلام فإحساس الغرب بتنامي الإسلام و اتساع رقعته جعله « يرى في الشّرق مكاناً خطِراً يتنامى فيه الإسلام وتتكاثر الأجناس الشريرة وأمّا المسلمون فهم سُودٌ ذَوُو هيئات بشعة. وقد أدّت هذه البغضاء إلى خلق عداوة للإسلام أتاحت حماية عقول المسيحيين من الارتداد عن دينهم وحقنت المسيحية بشعورٍ من الاحترام للذات من خلال تعاملها مع مدنية أرقى منها في أَوْجُهٍ كثيرة»[1]

يتضح أن التفوق الذي حققه الإسلام بتعاليمه الدينية، و قيمه الأخلاقية التي كثيرا ما تتعارض مع ما جاء في الديانة المسيحية التي أصابها ما أصابها من التحريف و الزيف. قد أصاب المسحيين و خصوصا المبشرين بخوف كبير من سرعة انتشار الإسلام و بالتالي ارتداد المسحيين عن الديانة المسحية. و هذا ما استدعى تدخل المستشرقين و الرحالة و كذا المبشرين من أجل ابتداع صور أخرى للشرق مخالفة لحقيقته. فالشرقي في نظر هؤلاء دوما لا يخرج عن صورة: المتخلف المتعصب العنيف المشعوذ، الغبي، الفذ وغيرها من الصفات الذميمة، لذلك يمكن القول أنّ مرجعيات الرحالة الدينية كان لها بالغ الأثر في تشكيل الصورة السلبية عن الإسلام .

1. رنا قباني، أساطير أوروبا عن الشّرق: لَفــّقْ تَسُــدْ، تر: صباح قباني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق، ط1، 1988، ص: 36

2 الرحالة إلى ليبـــــيا و صورة الآخر المتمرد:

وصل العديد من الرحالة الأوروبيين إلى ليبيا و دونوا العديد من الكتابات و المذكرات التي بقيت إلى يومنا هذا كشاهد عيان على مرور الرحالة الغربيين الذين اهتموا كثيرا بجغرافيا شمال إفريقيا و سعوا جاهدين للكشف عن هذه الصحراء الشاسعة. و التي تعد بالنسبة للإمبرياليين مناطق غنية جدا بمختلف الثروات الطبيعية لذلك رأينا من خلال النماذج التي تمت دراستها أن القوى الإمبريالية وفرت لأغلب الرحالة كل ما يلزمهم من أموال، و تسهيلات في التنقل، و حماية أيضا من أجل إعداد تقارير جغرافية، و اجتماعية، و حتى اقتصادية و ثقافية تهدف بالدرجة الأولى إلى محاولة فهم الآخر قبل الشروع في أي عملية عسكرية. ومن بين الرحالة الذين زاروا ليبيا: "**فريدريد هورنمان.Frederick Hornman**" و "**جيمس ريتشاردسونJames. Richardson**" و "**فوجل رولفس. Vogel Rolfes** " " **جيمس هاملتون.James Hamilton** " **المبشر** "**إيفالدEvald**"...

يصف المبشر "**إيفالد Evald** " الآخر الليبي بالمتمرد لما رآه من تمرد إبان الحكم العثماني قائلا: « قدم يوم أمس باشا طرابلس الجديد و يدعى أحمد. و قد استقبل بدوي مدفع يصم السمع.غير أنه لم يستبشر بقدومه سوى الأتراك. بينما زاد العرب في التقهقر داخل البلاد... صار العرب يتجنبون المدينة و لا يرتادونها إلا نادرا .»[1]

يبدو جليا أن تمرد العرب على الحكم العثماني كانت له مجموعة من الدوافع فهم ليسوا سعداء أبدا بالحكم العثماني الذي صار منفرا لشعوب المنطقة، و كل هذا بسبب السياسة الحربية التي تبنتها الدولة العثمانية آنذاك على حساب باقي أنماط الحياة الثقافية، و الاجتماعية و الاقتصادية، و هذا ما يؤكده الطاهر الزاوي قائلا: « و من هنا

1. إيفـــالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى ليبيا في سنة 1835، تر: منير الفندري، ص:105

ابتدأ الحكم في العهد التركي، و كان عهدا أسودا، استمر 360 سنة عانت أطرابلس فيها من الفقر، و الجهل، و الذل، و الفوضى فوق ما يتصوره الإنسان.»[1]

يستمر "**إيفـــالد**" في نقل الصور التي توحي بتمرد شعب المنطقة على القوانين، و الأعراف الدولية واصفا سكان مدينة طرابلس بالقراصنة قائلا: « تمثل مملكة طرابلس واحدة من أكبر دول القرصنة البائدة على ساحل شمال إفريقيا. و تمتد من زوارة إلى رأس هالة(Ros Hala) 900 ميل أنكليز.»[2]

يصور "**إيفالد Evald** " من خلال هذا النص الرحلي أن تمرد سكان طرابلس لم يتوقف على مناهضة الحكم العثماني فقط و إنما وصل إلى درجة امتهان القرصنة في سواحل طرابلس ليظهر سكان طرابلس كقراصنة، و قطاع طرق متمردون على القوانين و الأعراف الدولية، و هذا ما يدفعنا إلى التساؤل لماذا امتهن سكان المنطقة القرصنة ؟

واضح أن الرحالة قد أغفل المسوغ الذي دفع هؤلاء إلى امتهان القرصنة وهو«نظام الحكم الفاسد المبني على العنصرية و الاستغلال و انصراف الترك إلى ملء جيوبهم، و إشباع شهواتهم، و ترك البلاد للفقر، و الجهل، و المرض.» [3] لقد كانت الظروف الاجتماعية و الاقتصادية المتدهورة التي كانوا يعيشونها إبان فترة الحكم العثماني سببا وجيها لتغير طباع بعض سكان هذه المناطق و توجههم نحو التمرد و القرصنة. يتضح مماّ سبق أن تمرّد الآخر الليبي لم ينشأ من العدم ، وإنما تولدت هذه الرؤية التمردية للأنا من استبداد الممارسات السياسية السائدة آنذاك. مما يعني أنّ

1. الطاهر أحمد الزاوي، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، ط1، 1968، ص: 27
2. إيفـــالد، رحلة المبشر إيفـــالد من تونس إلى ليبيا في سنة 1835، تر: منير الفندري، ص:115
3. الطاهر أحمد الزاوي، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد الترك، دار الفتح للطباعة والنشر. بيروت، ط1، 1970، ص:266

النص الرحلي لـــ "**إيفـــالد**" كان انعكاسا للأوضاع السياسية السائدة في ليبيا غير أنّ الجزم بصدق الحقائق التاريخية يبقى أمرا متحفظا عليه .

3 – الرحلة إلى المغرب الأقصى و صورة الآخر المعادي لليهود :

كانت المعرفة الأوروبية حول الآخر المغربي محدودة للغاية على الرغم من المسافة القليلة التي تفصل بين المغرب و جنوب أوروبا، و نظرا للخصوصية التاريخية و الثقافية التي يحضى بها كل بلد من بلدان منطقة شمال إفريقيا، فإن الرحالة الأوروبيين عامة و الألمان خاصة سجلوا حضورهم بالمغرب الأقصى منذ أواسط القرن السادس عشر إلى بداية القرن العشرين [1] و هذا ما ترجمته كتاباتهم الرحلية التي وصفت جميع أنماط الحياة الاجتماعية، و الاقتصادية،... و ما تعلق بالجوانب الدينية نظرا لتلك الخصوصية العرقية و اللغوية، و الثقافية التي تميزه عن بقية بلدان شمال إفريقيا و هذا ما كشفته نصوص الرحالة الآتية أسماؤهم: "**جيرهارد رولفس Gerhard Rohlfs**"،" **لودفيش بيتش Ludwig Pietsch**"،"**رودولف زابل :Rudolf Zabel** " " **أوسكار لينتس.Oskar Lenz** " ، " **رايموند توماسي. Raymond Tomasi** " الذين كان هدفهم الأول هو التنقيب عن مناطق جديدة وثقافات غريبة عنهم، مثل اكتشاف الواحات الغامضة في صحراء إفريقيا واكتشاف المدن المغربية...

ازداد اهتمام ألمانيا بالمغرب وبمدنه مع تنامي أطماعها الاستعمارية، وتأكد هذا الاهتمام بإنشاء قنصلية ألمانية بطنجة سنة 1873 فقد قام الرحّالة الألمان بدراسة أحوال المغرب بواسطة المعاينة المباشرة، وأغلبهم كان في مهمة رسمية، وكانت

1. ينظر: كريم بجيت، الرحلة و صورة الآخر: قراءات في نصوص الرحالة الأوروبيين إلى المغرب، دار الأمان، الرباط، ط1، 2013، ص: 08

الميول الامبريالية توجّههم، مثل : " **مالتسان.Malzan** "، ومن النساء "**جريته آور.Grethe Auer**"،كأول امرأة تكتب عن المغرب بالألمانية. " **هنري دو كاسطري Henri de Castries** "،"**رايموند توماسي.Raymond Tomasi** "[1].

وردت صورة المغرب في نصوص الرحالة الأوروبيين حيث مثلتها رحلات كل من" **شارل دوفوكو.Charles de Foucauld 1883**" الذي ساهم من خلال رحلته القيمة في استكشاف خصائص المجتمع المغربي ، منذ حط الرحال بمدينة « طنجة –قادما من الجزائر– في 20 جويلية 1883» [2].إذ تعتبر هذه الرحلة الإثنوغرافية – على حدّ رأي مترجمها – الأهم خلال أواخر القرن التاسع عشر حيث كانت بمثابة الركيزة الأساسية التي فتحت شهية العديد من الباحثين المتعطشين لمعرفة المزيد من الأسرار حول هذا البلد ، كما تجدر الإشارة إلى أن الدقة التي تميزت بها ملاحظته لم تكن سطحية بل امتازت بدقة متناهية خاصة وهو يحاول اقتحام الأماكن المجهولة و الوعرة التي لم يزرها الرحالة من قبل ما يدعو إلى الريبة.

ينبغي التمعن في هذه الصور الواردة في نصوص الرحالة عن نظرة الآخر المغربي بمدينة " **الشاون**" لليهودي، حيث يقول في هذا الشأن: « وحتى اليهود الذين يسمح بوجودهم معرضون لأقبح المعاملات بحيث يعيشون في ملاحهم ولا يمكنهم مغادرته دون أن يهاجموا بالحجارة ...عبر طول أراضي الأخماس لم يمر أحد بجواري دون أن يحييني بسبه " الله يحرق بوك اليهودي ."»[3] يبدو الآخر المغربي حاقدا على اليهود المتواجدين بالمغرب ربما لأنهم يدركون جيدا مكر هذا القوم، و غدرهم

1. رضوان ضاوي، مدينة فاس بعيون ألمانية، موقع: http://ribatalkoutoub.com، 19:06،2015.05.01 سا

2. ف.شارل دو فوكو، التعرف على المغرب 1883–1884، تر: المختار بلعربي، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1999، ص:05

3. المصدر السابق ، ص:20

فعلى الرغم من ذلك التسامح الديني الذي يشتهر به المسلمون إلا أن النظرة لليهودي تبقى دوما نظرة بغض و نفور...

ثانيا: صورة الآخر الجزائري في مرآة الرحالة الأوروبيين:

تحتل الجزائر مكانة هامة في أدب الرحلة الأوروبي، فالعدد الكبير للرحالة الأوروبيين الذين زاروا هذا البلد القارة يكشف عن مدى أهمية الجزائر بالنسبة لهؤلاء الرحالة الذين أتوا من كل مكان رغبة منهم في استكشاف هذه المناطق الشاسعة، و من ثمة محاولة تدوين بعض الملاحظات، و المذكرات التي تهدف إلى التعريف بالمنطقة و سكانها أو «محاولة فهم سلوك سكان المنطقة »[1] فهم يحاولون عبثا تحديد ماهية هذا الشعب.

فصورة الجزائر في القرن الثامن عشر لم تكن واضحة جدا بالنسبة لهؤلاء « بفعل أن المصادر العربية والتركية كانت قليلة الأهمية في نظر الأوروبيين. ولكن أغلب ملامح هذه الصورة الكاملة لبلاد الجزائر رسمها الأوروبيون، سواء الرحالة منهم أو القناصل أو الأسرى ».[2] فقد بدأ توافد الرحالة الأوروبيين منذ الوجود العثماني في الجزائر فتنوعت إصداراتهم التي تهدف في مجملها إلى وصف عادات و تقاليد هذا الشعب. واصفين أيضا أهم المدن الجزائرية التي صمدت في وجوه الكثير من الحملات الاستعمارية الإسبانية، و الإنجليزية و الفرنسية... و قد أتيحت فرصة زيارة الجزائر

1. بيير جوردا،الرحلة إلى الشرق: رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر، تر: مي عبد الكريم و علي بدر، الأهالي للطباعة و النشر و التوزيع، دمشق، ط1، 2000، ص:103

2. عميراوي احميدة، صورة الجزائر قبل 1830 في مصادر أوروبية موقع:
http://www.al-fadjr.com/ar، 2015.04.17، 15:15 سا

و استكشافها للكثير من الرحالة الغربيين خصوصا الأوروبيين الذين لا يفصلهم عن الجزائر سوى البحر الأبيض المتوسط.

ومن بين الرحالة الذين زاروا الجزائر فنذكر على سبيل المثال لا الحصر الأسماء الآتية:

1 **الرحالة الإنجليز:**

حظيت الجزائر منذ الوجود العثماني باهتمام الرحالة الإنجليز الذين تواجدوا بكثافة في الجزائر منهم الجغرافي: " **نيكولاي. Nikolay 1551**"، و كذا الرحالة " **توماس شو. Thomas Shaw 1765**"...

2 **الرحالة الألمان:**

لقد زار الجزائر الكثير من الرحالة الألمان إلا أننا سنذكر بعض الأسماء اللامعة التي كان لها أثرا كبيرا في تصوير الجزائر من جوانب كثيرة مثل: "**موريتس فاغنر .Moritz Wagner 1835**"، **فيلهيلم شيمبر . Wilhelm Schimper 1804-1878**"، **و السندباد " هاينريش فون مالتسان. Heinrich von Maletsan 1826–1874**"،"**سيمون بفايفر.Simon Pfeiffer 1825–1830**" "**إيزابيل إيبرهارت.Isabelle Eberhardt 1877–1904**"...

3 **الرحالة الفرنسيين:**

مثلت الجزائر قبلة مهمة للرحالة الفرنسيين الذين تواجدوا بكثرة على غرار الألمان حيث نذكر منهم: ، القاص الفرنسي "**غي دو موبسان guy de maupassant 1881–1890**"،" **تيوفيل غوتييه .Théophile Gautie 1845**" "**ألفونس دودي .Alphonse Dodi 1861**"،" **بروسبر مريميه. Prosper**

Mérimée "،" **ألكسندر دوماس. Alexandre Dumas 1845** " ، " **غوستاف فلوبير. Gustave Flaubert1855**"..."[1]

زار هؤلاء الرحالة و غيرهم الجزائر، و دونوا صورهم في مجموعة من الأعمال الأدبية التي لا تزال إلى اليوم مصدرا تاريخيا مهمّا على الرغم من ذلك التباين الواضح في أهداف هذه الرحلات، و كذلك التشويه المقصود من بعض الرحالة للآخر الجزائري و الذي كان في العادة يستهدف كل ما هو" عربي ومسلم" مثلما يبدو جليا في قول الشاعر الإيطالي "**بيتراك. Pétrarque**" « ليس بإمكان أي كان أن يجعلني أصدّق شيئا طيبا يمكن أن يأتي من العرب.» [2]فلطالما كان العرب مثار جدل في كتابات الأنا الأوروبي ،نظرا لتباين الإيديولوجيات بين العالم الشرقي ونظيره الغربي. و هذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن تمثُّلات صورة الآخر الجزائري في كتابات الرحالة الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم، و تباين أهدافهم. ؟

1- رحلةج.أو.هابنسترايت.J.E Hebenstreit :

أ- صورة الآخر والخصوصية الدينية:

زار الرحالة الألماني "**ج.أو.هابنسترايت.J.E Hebenstreit** " الجزائر و تونس و طرابلس في النصف الأول من القرن الثامن عشر . و قد جاءت رحلته في شكل رسائل يوجهها إلى الملك البولوني الذي كلفه برئاسة البعثة العلمية إلى شمال إفريقيا بهدف التعرف على نباتات و حيوانات تلك المنطقة، و العمل على جمع عينات لفائدة القصر الملكي فنجح إلى حد كبير في القيام بتلك المهمة. حتى أنه عرف كيف

1. ينظر موقع: https://ar.wikipedia.org/wiki/، 2015.04.02، 15:17 سا
2. سليمة لوكام،الجزائر في كتابات "جي دو موباسان": الأرض و العرق و الدين، مجلة العربي، العدد: 642، ماي 2012، ص:60

ينال ثقة حكام شمال إفريقيا الجزائر، تونس ليبيا، حيث أظهر حسن التصرف خلال إقامته هناك.غير أن الظروف لم تساعده على التعرف أكثر على تونس و طرابلس، بعد أن سادت روح العداء للوجود الأوروبي نتيجة الاحتلال الإسبان ي لوهران و المرسى الكبير سنة 1732.مما اضطره إلى تحديد تحركاته و إنهاء مهمته... [1]

يصور الرحالة الألماني أخلاق الآخر الجزائري بطريقة موضوعية منافية لتلك الصور النمطية التي عهد الغرب تصويرها و التي لا تخرج عن دائرة البرابرة المتوحشين الذين لا دين و لا أخلاق لهم في قوله: «و هذه البلاد " مملكة الجزائر" تعرف عادة لدى الكتاب الأوروبيين ببرباريا (Barbarie) أو البلاد المتوحشة، و حسب دلالة هذه الكلمة فإنها تعني أنها مأهولة بأشخاص متوحشين و شرسين و هذا ما نعتبره منافيا للحقيقة إذا يجب أن ينصف النصف الأكبر من سكان هذه البلاد، فهم أفراد بعيدون عن التوحش و يقدرون الأجانب و لهم رغبة ملحة في التعاون معهم .» [2] يبدو أن احتكاك الرحالة الألماني بالآخر الجزائري قد كشف له صورة مغايرة تنفي صورة التوحش عنه على خلاف ما كان يُرَوّج عنه من سمات التخلّف والبدائية و الوحشية...

فقد استندت المركزية الغربية إلى مجموعة من الرؤى الثقافية التي أدّت إلى خلق ذلك التمايز بين الغرب والشرق، وعلى الرغم من هذه الصورة الإيجابية البعيدة عن التعصب العرقي فإنّ «هذا الانفتاح الفكري للغرب على الآخر لا يزال هشاّ وحديث العهد أكثر من اللزوم ،وبالتالي يصعب عليه أن يغذي الأمل بالمستقبل ، أقصد

1. ينظر: ج.أو.هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر و تونس و طرابلس، تر: ناصر الدين سعيدوني، ص:13.12

2.المصدر نفسه، ص: 25

الأمل بمستقبل ينظر فيه إلى الآخر وكأنّه شخص محترم مثله في ذلك مثلنا أو كأنّه شعب له كافة الحقوق المادية والمعنوية تماما كشعوب الغرب ... »[1]

يواصل الرحالة نقل الصور التي توحي بشهامة الجزائريين و أخلاقهم الفاضلة النابعة من الدين الإسلامي الذي يدعو إلى حسن المعاملات بين أبناء المجتمع الواحد و حتى مع الأسرى المسيحيين فعادات « و تقاليد الجزائر تحددها ضوابط الشريعة الإسلامية، فالمسلم الصالح يتوجب عليه حسن معاملة أصدقائه، يطلب منه أن يكون شديدا مع أعدائه رحيما بالمنهزمين، و في هذا الشأن قارنت بين حالة الشقاء التي عليها الجزائريون بمرسيليا مع وضعية الأسرى المسحيين بشمال إفريقيا فالأولون لا يستطيعون إلا بشق الجهد جر أغلالهم الثقيلة، بينما الآخرون و هم الأسرى المسيحيون في الجزائر يقضون نهارهم أحرارا مقابل دفعهم مبلغا ماليا كل شهر .... و في هذا الجو يتمتع الكل في الجزائر بحرية المعتقد ، فالأجانب يكرمون و الكل في وضعية تمكنهم من القيام بم يرغبون.»[2]

إن المتمعن في صورة الرحالة الألماني "**ج.أو.هابنسترايت. J.E Hebenstreit**" للآخر الجزائري سيدرك حتما الفرق الشاسع بين المجتمعين انطلاقا من خلال المعاملات الاجتماعية، و كذا معاملة الأسرى و سماحة الآخر الجزائري وكرمه من خلال تعايشه الديني البعيد عن التعصب...

1 . محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، دار الساقي، بيروت، ط1، 2010، ص:339

2. ج.أو.هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر و تونس و طرابلس، تر: ناصر الدين سعيدوني، ص:46

كما وردت في نص الرحالة نفسه صورا عن المرأة الجزائرية تجلّت في قوله: «... فلا يسرن في الأزقة بدون حجاب.» [1] تبدو المرأة الجزائرية في هذا المقطع من النص الرحلي في صورة المتديّنة الملتزمة بضوابط الشريعة الإسلامية الداعية إلى العفة والحياء. إذ لا تغيب قيم وتعاليم العالم الإسلامي عن الذات الأوروبية بغضّ النظر عن نوعية الرؤية وأبعادها.

لا يتوقف الرحالة عند هذا الحد، و إنما يواصل نقل الصورة التي توحي بسمو أخلاق الآخر الجزائري الغيور على دينه، فالجزائريون «... من أتباع الرسول محمد صلى الله عليه و سلم الغيورين يستهجنو ن المتشيعين لعلي(ض)، و يقومون في الغالب بالحج إلى مكة... و يمتنع المسلمون الأتقياء عن شرب الخمر...» [2] وهذا ما يوضح– من منظور إيجابي – وعي الأنا الأوروبية بالخصوصية الدينية للآخر الجزائري، حيث يشير إلى ردة فعل الجزائريين على الشيعة، و التي رأى فيها من الاستهجان و الإنكار... حتى أنه أشار إلى التزام المسلم التقي و ابتعاده عن الخمر المحرم في الدين الإسلامي.

ب – صورة الآخر الماكـــــر/ المتمرد:

لم يكتف الرحالة الألماني "**ج.أو.هابنسترايت.J.E Hebenstreit** " بنقل الصور الإيجابية التي_تمّ التطرق إليها ولكنّه صوّر الآخر الجزائري في جوانبه السلبية كذكره لقضية تسديد الجباية للحاكم العثماني، و التي يظهر فيها الآخر الجزائري متمردا و ماكرا حيث يقول الرحالة في هذا الشأن: « و قد اعتاد هؤلاء العرب الرحل الهروب

1. المصدر السابق، ص:47
2. المصدر نفسه، ص:47

إلى الصحراء عندما يقترب وقت تسديد الجباية، و لهذا كان داي الجزائر يرسل فرق الجند المعروفة بالمحلة إلى مواطنيهم وقت الحصاد ليتمكن من استخلاصها.»[1]

يظهر البدو من الجزائريين من خلال هذا النص الرحلي في صورة المكر والتمرّد على السلطان العثماني، حيث نجدهم غير مقتنعين بنظام الجباية الذي كانت تفرضه السلطات العثمانية الحاكمة لمنطقة شمال إفريقيا. فضلا عن ذلك تلك الظروف القاسية التي كان يحياها هؤلاء في ظل الحكم العثماني الذي فشل إلى حد ما في إدارة و تحسين الظروف الاجتماعية و الاقتصادية لسكان المنطقة « حيث أن هؤلاء العرب لا ينفكون يسعون بدون هوادة إلى تدمير بقايا المدن القديمة خوفا من أن يستعمل أحجارها الأتراك في بناء حصون تساعدهم على إبقاء العرب تحت سيطرتهم كما حدث العديد من الأماكن.»[2] يبدو أنّ هذه الصورة السلبية التي صاغها الرحالة عن الآخر الجزائري كانت ردّة فعل طبيعية رغبة منه في التخلص من الحكم العثماني الذي طغت سلبياته على إيجابياته.*

ج– صورة الآخر المقاوم/ المتحدّي:

يصور الرحالة الألماني "**ج.أو.هابنسترايت.J.E Hebenstreit** " بسالة الآخر الجزائري من خلال ردة فعله على الحملة التي شنها الأسطول الاسباني على مدينة وهران قائلا: « و قد تبين لنا من تلك الإجراءات أن الجزائريين لا تنقصهم الرغبة في الدفاع، و أن لهم من الإمكانيات ما يجعلهم يقاومون مقاومة شديدة، و لذا يجب علينا أن

1. المصدر السابق، ص:33.32

2. المصدر نفسه، ص:60

*. لا بد من الإشارة إلى نقطة مهمة و هي قضية: عدم رضا السكان الأصليين لشمال إفريقيا بالحكم العثماني، حيث خلفت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية التي آلت إليها المنطقة أثناء الحكم العثماني رغبة كبيرة في التخلص من الحكم العثماني و الاتجاه نحو الحكم الذاتي.

ننصف هذا الشعب و خاصة الحامية تركي، فنعرف بأنهم يستميتون من أجل الدفاع عن أنفسهم، و يستبسلون عند التصدي لأي هجوم يتعرضون له، و هذا ما اكسبهم هيبة.»[1]

مثّل النص الرحلي الآخر الجزائري في صورة المقاوم والنضالي لوصفه بالشجاعة والإقدام إذ لا يتوانى أبدا في الدفاع عن نفسه مهما كانت قوة العدو الذي يغير عليه .كما يشير الرحالة الألماني إلى بسالة العثمانيين المتواجدين بالجزائر و الذين لا يختلفون كثيرا عن الآخر الجزائري في التصدي لأي هجوم من شأنه أن يلحق الأذى بهم أو بممتلكاتهم. فمدينة الجزائر حسب الرحالة « من المدن المهمة في إفريقيا فقد واجهت في كل الأوقات جيوش أقوى الدول.» [2]

كما تجدر الإشارة أن هناك الكثير من الرحالة الذين أشاروا إلى شجاعة الآخر الجزائري و شدة مقاومته للغزاة. مثلما ورد في رحلة " **هاينريش بارت**".

2– هاينريش بارت.Heinrich Barth" :

يعد الرحالة الألماني " **هاينريش بارت**" من أشهر الرحالة الغربيين الذين ساهموا خلال القرن التاسع عشر في استكشاف القارة الإفريقية و التعريف بأسرارها، حيث تمكن من زيارة المغرب الأقصى، و كذا السواحل الجزائرية، و أخيرا كمقيم بتونس ما بين 1845 و 1846 بعد أن وفرت له وساطة القنصل الانجليزي " **وليم ريد**" لدى الباردو كما أن "**أحمد باي**" لم يبخل عليه بالتسهيلات التي تضمن التنقل

1. المصدر السابق، ص:60
2. المصدر نفسه، ص:35

و الحماية و الإقامة مماّ مكنه من زيارة العديد من المناطق... [1]وقد تضمنت رسائل بارت ملاحظات جغرافية، و تاريخية صادرة عن خبير مختص، و من انطباعات اجتماعية و اقتصادية و سياسية لا تخلو من الفائدة، هذا فضلا عن قيمتها الوثائقية.

أ. **الأنا الكولونيالي والآخر النضالي :**

يعلّق بارت على الأوضاع في الجزائر أثناء وصوله في 03 أكتوبر 1845 قائلا:« إن أهالي البلاد الأصليين يرفضون الاستسلام بسهولة، و لئن أضحت السيطرة على القطر أمرا مفروغا منه، فإن ذلك يكلف الفرنسيين دماء غزيرة و أموالا طائلة.» [2] تتضح صورة الآخر الجزائري النضالي الذي لا يستسلم بسهولة على الرغم من بسط فرنسا نفوذها على الكثير من الأقطار إلا أن ذلك لم يمنع أبدا الأهالي الشجعان من مقاومة الاستعمار الفرنسي مخلفين خسائر بشرية و مالية كبيرة. ففكرة الشجاعة و التصدي للغزاة تكررت في كثير من النصوص الرحلية .

3– تيوفيل غوتييه Théophile Gautier:

يعدّ هذا الرحّالة ناقدا و مسرحيا و روائيا رومنتيكيا اشتهر برواياته التاريخية كان مغرما بالرحلات، و نشر الكثير من المقالات عن زيارته للعديد من البلدان، ومنها زيارته لمدينة قسنطينة في صيف 1845 ، و التي تمت باقتراح من الناشر الذي تكفل بمصاريف الرحلة. و قد أقام بالجزائر ستة أشهر... جمع هذه الرحلات

1. هاينريش بارت، سبع رسائل مخطوطة لـــ: هاينريش بارت عن رحلته إلى تونس 1845– 1846 ، تح، تر: منير الفندري، بيت الحكمة، تونس، دط ،1987، ص: 9.8.7
2. المصدر نفسه، ص: 11

و نشرت في كتاب سنة 1865 بعنوان "في إفريقيا"، ليعاد نشرها لاحقا تحت عنوان "رحلة إلى الجزائر".[1]

أ– صورة الآخر والخصوصية الشرقية:

يشكل العمران صورة من صور هوية الآخر، و في هذا الصدد ينقل لنا الرحالة الفرنسي " **تيوفيل غوتييه .Théophile Gautier** " بعض مظاهر مدينة قسنطينة التي زارها في صيف 1845 .حيث أتيحت له هناك الفرصة لحضور إحدى حفلات العيساوى قائلا: « إن مدينة أحمد باي حتى و إن دخلت تحت سيطرة الفرنسيين فهي لم تفقد أي شيء من طابعا الشرقي، فقد حافظت على شوارعها الضيقة، المتداخلة ككبة من الخيط لا يمكن فردها، و على مآذنها السامقة، و بيوتها الخالية من النوافذ ، وأبوابها الواطئة ، ومظهرها الشرقي.» [2] يبدو الآخر القسنطيني محافظا على خصوصيته الشرقية على الرغم من بسط الاستعمار الفرنسي لنفوذه في المنطقة، و هذا ما يعكس نوعا من المقاومة و التصدي، فأول ما سعت إليه القوى الإمبريالية بعد بسط نفوذها إقليميا وجغرافيا هو طمس خصوصية الشرق بانتماءاته الإثنية والدينية .وهي صورة لم يعبّر عنها النص الرحلي بقدر ما أثبتها التاريخ.

ب– صورة المرأة القسنطينية و سحر الأنوثة:

يصف الرحالة الفرنسي " **تيوفيل غوتييه .Théophile Gautier** " النساء اللواتي وجدهن في حفل العيساوة الذي حضره بقسنطينة بالجميلات حيث يقول في هذا الشأن:« في الجهة المقابلة على الطريقة الشرقية أربع أو خمس نساء في مقتبل العمر

1. ينظر: أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر،دار التنوير، الجزائر،ط1، 2013،ص:13

2. المصدر نفسه، ص: 15

يغطين رؤوسهن بتلك المناديل الحريرية ذات الألوان الصارخة...أما جفونهن المسودة بالكحل، و الأهداب المصبوغة التي تصل التي تتصل عند منبت الأنف، فإنها تعطي لجمالهن طابعا غريبا لا يخلو من جاذبية.» [1] تبدو المرأة الجزائرية ممثلة في القسنطينية في صورة الأنثى الساحرة الجذابة وهي صورة تعبّر عن انتمائها الشرقي بكلّ خصوصياته.

كما وردت في نصه الرحلي صور طريفة تمثلت في الزغاريد التي سمعها من بعض النسوة اللواتي حضرن الحفل قائلا: «و جمدت هذه الزغرودة المخ في العظام الزغرودة تتم بضرب الفم براحة اليد أثناء خروج الصوت، و يمكننا القول عنها أنها تشبه عواء ذئب مجروح يشكو ألمه لليل.» [2] نفهم من خلال هذا التعليق أن الرحالة الفرنسي لم يكن يعرف الزغاريد، و هذا راجع لاختلاف عادات و تقاليد المنطقة عم هو سائد بأوروبا، إذ يمكن القول أن الزغاريد يمكن أن تصنف كجزء من تقاليد الشرق في مختلف المناسبات السعيدة و الاحتفالات، لذلك يمكن القول أن اندهاش الرحالة من هذه الأصوات و تشبيهه لها بعواء الذئب المجروح ليس أمرا غريبا لأنها المرة الأولى التي يصادف فيها هذه العادة.

ج– صورة الآخر المجازي :

يواصل " **تيوفيل غوتييه .Théophile Gautier** " حديثه عن النسوة حين شاهدهن في الحفل و لكن هذه المرة بنوع من السخرية والتهكم الأوروبي و هو يقول: « وانتظرت أن أرى العجائز الساحرات، وهن يمتطين مكنسة تعيدهن إلى ديارهن

1. المصدر السابق، ص:20
2. المصدر نفسه، ص:26

و لكن التقليد ليس هكذا في إفريقيا، حيث مضين إلى ديارهن راجلات.» [1] يعبرّ هذا النص الرحلي عن صورة الآخر الجزائري الغرائبي وهي صورة نمطية مرتبطة بنسق ثقافي وبتصورات خيالية مجازية مسبقة تشكّلت في الثقافة الغربية عن الشرق السّاحر على أنه بلد العجائب والغرائب والخرافة والأساطير .

4- ألفونس دودي.Alphonse Dodi :

يعدّ الرحالة " **ألفونس**" كاتبا فرنسيا روائيا و مسرحيا ساخرا، زار الجزائر أواخر سنة 1861 للاستشفاء من داء السل فقضى فيها ثلاثة أشهر زار فيها الجزائر و البليدة وأقام بدينة مليانة، و كتب من وحيها عدة مذكرات سفر، نشرت في الصحافة من بينها مجموعة " رسائل طاحونتي 1869" و " حكايات الاثنين 1873"...[2]

أ- صورة الآخر المحروم اجتماعيا:

يكشف لنا الرحالة الفرنسي " **ألفونس دودي. Alphonse Dodi** " جانبا من جوانب الحرمان و الفقر الذي يعيشه الشعب الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي قائلا: « و في إحدى الزوايا كان هناك نصف دزينة من صغار العرب، نصف عراة، يلعبون بالكويرات، و يصيحون صياحا شرسا،... » [3] يظهر النص الرحلي الحرمان الذي يعيشه الأطفال الصغار في فترة الاحتلال الفرنسي التي تكالبت فيه جميع الهموم على الشعب الجزائري الذي كان يعيش في ظروف مزرية لم تسلم منها حتى البراءة.

1. المصدر السابق، ص:27
2. المصدر نفسه، ص: 53
3. المصدر نفسه، ص: 55

ب– الأنا الأوروبي وتشويه الآخر:

لطالما وضعت الذات الأوروبية الآخر موضع زيف وتشويه لحقائقه الدينية والاجتماعية والتاريخية ، إذ يحوي نص " **ألفونس دودي.Alphonse Dodi** " الرحلي صورا مشوّهة للآخر الجزائري انطلاقا من تزييف الحقائق وتحريف التاريخ إذ تضمر صورة حقد وكراهية **للأمير عبد القادر** قاهر الجيوش الفرنسية، حيث يحاول الرحالة ، و "**القايد سيد عمر**" تلفيق تهم تمس شخص **الأمير عبد القادر** و هو يصفه باللص الذي يستولي على الخيول و النساء، و أخيرا بالنذل الذي يقال العجائز على الطريقة الفرنسية.*

و تتضح هذه الصورة في قوله « و بعد أن كان سيد عمر عدوا لنا و حليفا لعبد القادر انتهى إلى الاختلاف مع الأمير، و أعلن خضوعه للسلطة الفرنسية. و لكي ينتقم الأمير منه دخل إلى مليانة في غياب سيد عمر، ونهب قصوره، و قطع أشجاره و أخذ خيوله و نساءه، وسحق رقبة أمه تحت غطاء صندوق كبير...» [1] يظهر النص الرحلي الأخير **الأمير عبد القادر** على أنه شخص لا إنساني –خاصة و هو يتعاطف مع أحد الخونة الذين تخلوا عن بلدهم الجزائر من أجل فرنسا – يصطدم بصورة مزيفة لم تثبت تاريخيا لأنّ التاريخ وحده كفيل بكشف الحقائق وإزالة الستار عن المضمر والخفي لأنّ « الثقافة الأوروبية الحديثة قامت على أساس خرافة مفادها الإدّعاء بالاستمرارية في تاريخ القارة الأوروبية وإبداع جذور قديمة وهمية للتضاد

*. لابد أن أشير إلى نقطة مهمة و هي الأخلاق التي دعا إليها الإسلام أثناء الحروب من عدم قتل الأبرياء و النساء و الشيوخ و كذا الإفساد في الأرض بقطع الأشجار و إبادة الحيوانات. و أنا لا نشك في التزام الأمير عبد القادر بهذه النصائح التي أمر بها النبي(ص) المسلمين في حروبهم مع الكفار. لذلك من غير الممكن أن يسمح الدين الإسلامي و أخلاق الأمير عبد القادر بمثل هذه الأفعال التي لا يتقنها سوى فرنسا و حلفاؤها.

1. أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ص:57.56.

بين هذا التاريخ المزعوم وبين تاريخ المنطقة التي تقع على الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط هذا هو مضمون التمركز الغربي وهو مضمون قسّم العالم إلى مركز وأطراف ،استنادا إلى اختراع خرافة "الغرب الأبدي" المضاد للشرق الأبدي " وقد كان هذا الاختراع المزدوج ضروريا من أجل تأكيد غلبة عناصر التطور المستمر في "الغرب" وغلبة عناصر الثبات في" الشرق"»[1].

لأجل ذلك لا يمكن أن نغفل أنّ هذه الصور الذهنية المشوهة تم تشكيلها وفق مرجعية امبريالية استعمارية و تمّ تمثُّلها في النص الرحلي كصورة نمطية ثابتة في اللاوعي الجمعي للأنا الفرنسي السلطوي الذي صاغ الكثير من الحقائق المزيفة تاريخيا ليبررّ سياسته الاستعمارية التوسعية.

ج– صورة الآخر المضياف/ الكريم:

يواصل الرحالة الفرنسي نقل المشاهد التي تعكس أخلاق الآخر الجزائري ليحدثنا هذه المرة بنوع من الإيجابية عن صفة الكرم و الجود التي تميز الشعب الجزائري قائلا: « كان هذا المحل الذي يطلقون عليه اسم "مقهى" شبيها بصالونات الاستقبال في منازل الكبراء العرب ، فهو بيت في داخل بيت مخصص للضيوف و السابلة، حيث يقوم فيه هؤلاء المسلمون الخيرون المهذبون الشديدو الحفاوة بواجب الضيافة المقدس، مع الحفاظ في نفس الوقت حرمة الحياة العائلية الخاصة التي يوصي بها الدين.» [2] فصورة الجود، و الكرم من الصفات الملازمة للآخر العربي عامة و الجزائري بصفة خاصة فالعربي مضياف بطبعه، فلا يتوانى أبدا في الترحيب بضيوفه، و إكرامهم حتى تكتمل سمات الشخصية العربية الإسلامية .

1. عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، دط،2010، ص 20
2. أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ص:81

5– غي دو موبسانGuy de Maupassant :

يعدّ هذا الرحالة روائيا و قاصا فرنسيا زار الجزائر ثلاث مرات: الأولى سنة 1881 بصفة مراسل صحفي لجريدة " **لوكولوا**" لتغطية أخبار **الشيخ بوعمامة** مم أتاح له الفرصة لزيارة العديد من مدن الغرب الجزائري كالبيض. أما الرحلة الثانية التي كانت بصفة شخصية فكانت في سنة 1888 حيث زار من خلالها بجاية قسنطينة ... أما الرحلة الثالثة و الأخيرة فقد كانت في سبتمبر 1890 و كانت رحلة استشفائية بعد أن تدهورت صحته بفعل مرض السفلس، و أصبح يعاني من نوبات الهلوسة الريبة من الجنون.وقد جمعت مذكرات سفره إلى هذه المناطق ضمن كتابيه **"Au Soliel 1884" و " La vie errante1890 ".** [1]

أ– صورة الآخر الميزابي الشريف والملتزم:

لقد سنحت الفرصة للرحالة الفرنسي "**موبسان Maupassant**" للولوج أعماق الصحراء الجزائرية إلى أن وصل إلى مدينة غرداية حيث « يقطن بنو مزاب في الجنوب من مستعمراتنا الجزائرية...في هذه الجمهورية الصغيرة لهؤلاء المسلمين الفاضلين... يكرهون إراقة الدماء و لا يلجؤون إليه إلا للدفاع عن النفس...العزوبية بالنسبة لهم تدفعهم إلى الفجور و الغضب، و الأغاني و الموسيقى و الرقص و كل أشياء البذخ كما الدخان، و القهوة في الأماكن العامة... »[2] يبدو المزابي من خلال هذا النص الرحلي في صورة الشخص الشريف الذي لا يريق دماء الآخرين إلا من أجل الدّفاع عن كرامته وشرفه، و في صورة الملتزم حين يحاول تحصين نفسه قدر الإمكان

1. المصدر السابق، ص: 91

2. غي دو موباسان، رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس"، تر: نادية عمر صبري، دار ورد للطباعة و النشر، دط،2007، ص:136

من الآثام كما وتجنّب المحرمات التي نهى عنها الدين الإسلامي من إراقة للدماء و موسيقى و رقص ليظهر الآخر الجزائري ممثلا في الميزابي في صورة الآخر الشريف العادل والملتزم .

ب– صورة الآخر الميزابي المتعلّم:

أما من بين المواقف التي شدت انتباه "**موبسان**" هي انتشار المدارس بمنطقة بني ميزاب حيث «يتقن الجميع القراءة و الكتابة و تنتشر المدارس و المؤسسات القروية المهمة في كل مكان.» [1]يظهر الميزابي من خلال هذه الصورة شخصا مهتما بالتعليم خاصة و هو يحرص على انتشار المدارس في جميع المناطق الميزابية مم ساهم في انعدام الأمية في المنطقة فلا يوجد هناك شخص لا يتقن القراءة أو الكتابة و لو كان يقطن في المناطق القروية...

ج– صورة الآخر الميزابي المتفوق:

يواصل "**موبسان** " نقل الصور التي توحي بالتفوق و النجاح الذي حققه الآخر الميزابي في حياته الاجتماعية، و الثقافي، و الاقتصادية في قوله: و « أهل مزاب و اليهود هم وحدهم التجار، و المفاوضون، و المهرة الحاذقون في كل هذه البقعة من إفريقيا... يعتبر العربي ، العربي القح رجل الخيمة ، كل الأعمال معيبة و يحتقر التاجر "المزابي" غير أنه يأتي في فترات محددة ليتزود من متجره و يعهد إليه بالتحف التي لا يمكنه أنه يحتفظ بها في حياة تشرده .هناك نوع من الميثاق الدائم القائم بينهما.»[2]

1. المصدر السابق، ص:97

2.المصدر نفسه، ص:93

يبدو الآخر المزابي من خلال ما نقله الرحالة "**موباسان**" شخصا متفوقا على الآخرين بإتقانه لعمله و تمكنه من التجارة فضلا عن ذلك أنه موضع ثقة.كما يصور العرب في صورة الكسالى الذين يتكبرون على العمل و هم أيضا يحسدون الميزابي ربما لأنه متفوق عليهم. غير أنهم سرعان ما يسارعون إلى المزابي لغرض اقتناء بعض الأشياء منه و ترك بعض تحفه عند المزابي لكي يحتفظ بها نظرا لطبيعة حياة العرب.

د– صورة الآخر وجاذبية الطبيعة:

لقد بدت الجزائر في النصوص الرحلية "**لموبسان**" في الكثير من الصور، فهذا البلد العظيم الذي أسر جميع الرحالة الأوروبيين بجمال طبيعته الفاتنة و سحر مناظره الخلابة التي أدهشت هؤلاء الرحالة و دفعتهم إلى الكتابة عن تجاربهم الكثيرة في الجزائر كما هو الحال بالنسبة "**لموبسان**" الذي ينقل ما رآه في بجاية، و يشاركنا إحساسه قائلا: « كنت أتأمل فيه بعيني المبهورتين خليج بجاية الساحر، الذي انبلج أمامنا.كانت غابات القبائل تغطي الجبال العالية، و الرمال الصفراء تبدو من بعيد كأنها تصنع للبحر شاطئا من التربة الذهبية، و الشمس تصب سيولا من النار على البيوت البيضاء للمدينة الصغيرة... الجبال العائمة في الأمواج الزرقاء، الأجمل من شاطئ نابولي، ومن شاطئ أجاكسيوبورتو في كوستريكا...»[1]

تشكّلت هذه الصورة انطلاقا من «وجود الغرب ككتلة واحدة يؤدي بالضرورة إلى تشكيل مفهوم الشرق ككتلة مضادة أو مقابلة ،وعلى الرّغم من تقدّم البحث التاريخي والعرقي– الأنتروبولوجي– يبقى الشرق مجرّد فضاء يسقطون عليه الرؤى

1. أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، ص: 129.130

الرومنطقية ثم الإيديولوجية للغرب الفاتح المنتصر» [1] فهذه الصورة التي تشكلت عبر النص الرحلي، و التي انطبعت في ذهن الرحالة عن الجزائر الصورة نفسها الثابتة في الذهن الأوروبي عن الشرق بأكمله في كونه مصدر السحر والجاذبية والجمال و العجائبية.

6- هاينريش فون مالتسان.Heinrich von Maletsan :

قام الرحالة الألماني "**مالتسان Maletsan** "برحلته إلى الجزائر في أواسط القرن التاسع عشر، وقضى في الجزائر ثلاث سنوات مما سمح له بتقديم نظرة شاملة عنها، و هذا بالذات ما يميز كتاباته عن كتابات بقية الرحالة الألمان الذين زاروا الجزائر أمثال: "**فيلهام شريمبر 1831**" الذي مكث في الجزائر بضعة أشهر فقط، حيث قدم "**شيمر Shemer** " وصفلمدينة الجزائر ونواحيها، والتعريف بسكانها وأوضاعهم الاجتماعية، والحديث عن الحركة الصناعية والتجارية والثقافية ... نفس الشيء ذهب إليه "**الأمير بوكلر موسكاو Bockler Muskau** " الذي اكتفى بوصف بعض مناطق الساحل الجزائري، والتعليق على بعض الأحداث التي وقعت خلال زياراته للجزائر...في حين نجد أن الرحالة "**هاينريش فون مالتسان**" قد جاب الجزائر طولا و عرضا و دون الكثير من المشاهدات و المفارقات... .[2] أما من بين الصور التي وردت في كتابه الشهير الموسوم بـــ: " **ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا** " و الذي خص فيه الجزائر بثلاثة فصول من أربعة يأتي :

1 . محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، ص:329

2. ينظر: رابح هوادف، جزائر 1852: أرض العجائب،/http: // www.echihab.com، 18:08،2015.05.10 سا

أ. صورة الآخر و روح الانتماء:

ينقل الرحالة الألماني جانب من جوانب الآخر الثابت في جوهره و المتمسك بهويته على الرغم من كل ما يتعرض له من طرف المستعمر الفرنسي قائلا: « لقد كان الفرنسيون يحتقرون الأهالي إلى أبعد الحدود، وهذا ما جعلهم لا يهتمون بدراسة عاداتهم وتقاليدهم أدنى اهتمام.. فعندما تكون للمرء قضية مع أناس، متمسكين بعاداتهم وتقاليدهم إلى حد التعصب لها، مثلما هو الحال عند هذه القبائل، فإن على المرء أن يتذكر أن أي مساس بهذه التقاليد المقدسة قد يجعل من الصديق عدوا لدودا بالنسبة إليها، إلا أنه من العسير على الفرنسيين أن يهتموا بخصائص الشعب الذي يضطهدونه»[1] إن ما يميز " **مالتسان**" عن بقية الرحالة الذين زاروا الجزائر هو حنكته و دقة ملاحظته، و هذا ما يبدو جليا في هذا النص الرحلي حيث يفسر عدم تمكن الاستعمار الفرنسي من بسط نفوذه في الجزائر بسبب عدم اهتمامه بالمكونات الأساسية للمجتمع الجزائري ففرنسا كانت تستهدف ثوابت الأمة الجزائرية و مقوماتها و كل ما يرمز للهوية الجزائرية الإسلامية العربية ، حيث وقعت فرنسا في مأزق كبير لأنها لم تكن تحسب حسابا لتمسك الآخر الجزائري بكل خصوصياته و كل ما يمت بصلة إلى هويته على الرغم من كل المحاولات البائدة التي انتهجتها فرنسا.

فقد كان الشعب الجزائري على بساطته و فقره و معاناته الكبيرة في ظل الاستعمار الفرنسي متمسكا بهويته خاصة بمعتقده الديني إلى أبعد الحدود و هذا ما يوثقه الرحالة الألماني " **هاينريش فون مالتسان**" قائلا: كان هناك طباخ فرنسي « يشمئز من أبناء الجزائريين بصورة مضحكة، وكان يدَعي أن لديه ما يبرر كرهه للعرب. فقد خدعه أحدهم بطريقة صعب عليه أن ينساها، مع أنه كان هو الظالم، فروى

1. السعيد بوطاجين، السندباد الألماني– الحلقة الثانية –، http://www.djazairnews.info، 2015.05.11، 10:26 سا

لنا ظلم البدوي المزعوم له. فقد تراهن هذا الطباخ على أنه سيحمل عربيا مخادعة أو ارتشاء على تناول لحم الخنزير الذي يحرمه القرآن كما هو معروف. ولكي يكسب الرهان دعا أحد سكان قرية مجاورة إلى فندق سان كلو. وهناك قدم له طعاما من جملته دجاجة محمرة، كانت في الواقع دجاجة مزيفة، إذ أنها كانت في واقع الأمر عظام دجاج ملبسا بلحم الخنزير بطريقة فنية. وكان الطباخ يتصور أن العربي لن ينتبه إلى هذه الخديعة، فالدجاج يحل له أكله، إلا أنه أخطأ في هذه النقطة الأخيرة. فالعرب يحل لهم حقا أكل الدجاج، غير أنهم لا يأكلون ما يذبحه الكفار. وهكذا أكل العربي كل ما قدمه له باستثناء الدجاجة » . [1] لا شك أن هذه النادرة على الرغم من طرافتها إلا أنها تحوي بين ثناياها على الكثير من الدلالات التي توحي بشكل من أشكال المقاومة التي يتبناها الآخر الجزائري طيلة فترة الاستعمار (المسخ) ضد المستعمر الفرنسي الذي لا يكف عن تخريب كل ما يمت بصلة بالمقدسات الإسلامية و طمس ملامح الهوية الجزائرية.

ب. صورة الآخر و سحر العمران:

يواصل السندباد الألماني "**مالتسان**" سرد مشاهداته حول المدن الجزائرية التي زارها أثناء رحلته ليقف عن نقطة مهمة و هي قضية خصوصية العمران قائلا: «وبقدر ما يكون المظهر الخارجي للبيوت العربية معتما وبشعا في الغالب يكون داخلها لطيفا يروق للعين التي تعجب بالجمال المعماري. فكل إنسان له نصيب ضئيل من الذوق لابد أن يعترف بأن هذه الصور المعمارية البسيطة المزخرفة أجمل وأكثر تناسقا من كل تلك البنايات الأوروبية الخرقاء التي تهدم

1. المرجع السابق

بسببها كل هذه البيوت الصغيرة» [1] يبدو واضحا أن الرحالة الألماني على دراية واسعة بطبيعة العمران الجزائري _ الشرقي_ الذي يصفه الرحالة بالجميل على الرغم من كل بساطته مقارنة مع تلك البنايات الأوروبية الشاهقة التي تقوم فرنسا ببناءها مقابل هدم البيوت الجزائرية كمحاولة منها لتغيير وجه المدينة و محو خصوصيتها الشرقية التي وصفها "**مالتسان**" بالمتناسقة في زخرفتها، و أشكالها البديعة .

ج. صورة المرأة القبائلية المناضلة/ الصامدة:

مر "**مالتســـان**" بعدد من القرى الواقعة في منطقة القبائل، حيث توقف في إحداها و دخل بعض البيوت القبائلية و نقل لنا صورة عن المرأة القبائلية التي تبدو من خلال وصفه مختلفة نوعا ما عن المرأة البدوية و الحضرية حيث رأى أن المرأة القبائلية تقوم بأعمال شاقة في الحقول، و المزارع كما الرجال « و لم تفر القبائليات عند رؤيتنا، و ذلك ما تعودت البدويات، و الحضريات فعله، و كن كلهن سافرات على غرار جميع الجزائريات اللواتي يسكن الأرياف ، و لم أكتشف بينهن امرأة ذات جمال كبير ، و السبب في ذلك أنهن يَقُمْنَ وحدهن تقريبا بالعمل في الحقل و البيت ، و يقال أنهن جميلات في ريعان شبابهن ، غير أن برودة الطقس في الشتاء ، و حرارة الشمس في الصيف التي يتعرضن لها دائما يجعل من ابنة العشرين بالإضافة إلى الأعمال الشاقة التي تقوم بها تظهر بمظهر امرأة في الخمسين.» [2]

---

1. رابح هوادف، جزائر 1852: أرض العجائب، http: // www.echihab.com/، 20:38،2015.05.10 سا

2. ينظر: حسن بربورة ، قراءة في كتاب ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا للرحالة الألماني، http://www.alrawashed.com/ ،2015.05.18، 16:32 سا

يحاول "**مالتسان**" من خلال هذا النص الرحلي الوقوف عند المرأة القبائلية التي وجد فيها اختلافا كبيرا مقارنة مع المرأة في بقية المناطق التي زارها، حيث تظهر المرأة القبائليّ في صورة الأنثى المنهكة التي فقدت جمالها مذ قررت الدخول إلى تلك الحقول لمساعدة الرجال و مكابدة المتاعب و مشاق الحياة التي لا تنتهي في تلك الفترة العصيبة التي كانت تمر بها الجزائر إضافة إلى قسوة الطبيعة لتناضل حواء القبائل رفقة آدم و لو كان ذلك على حساب أنوثتها و جمالها الذي لفحتها أشعة الشمس الحارقة و قسوة الشتاء البارد.

ومجمل القول إنّ هذه النصوص الرحلية الأوروبية – حول المغرب بصفة عامة والجزائر خصوصا – سواء أكانت إيجابية أم سلبية كانت عينا مفتوحة على الظواهر الاجتماعية والثقافية والدينية ،صاغتها الذات الأوروبية بمرجعياتها الثقافية والأيديولوجية وانطلاقا من وعيها بوجود الآخر ،لأنّ مفهوم الذات لا يتشكّل إلاّ بإدراك الآخر.

الخاتمة

حاول هذا البحث جاهدا استجلاء صورة الآخر العربي في كتابات الرحالة الأوروبيين التي تعد تربة خصبة للدراسة لما تقدمه لنا من معارف، و رؤى متنوعة عن تمثلات الآخر العربي في رحلاتهم، إذ حاولت من خلال هذه الدراسة الوقوف عند بعض الرحلات التي تمثل منبعا مهما يحفل بالكثير من المكونات الثقافية التاريخية الاجتماعية و الإثنوغرافية... حيث تناولت الدراسة هذه الصور بالتحليل، و التفصيل قصد الوقوف عند أهم عوامل تجلي هذه الصور، و قد خلص البحث إلى النتائج الآتية:

1 تعتبر الصوراتية أو الصورولوجيا (Imagologie) ميدانا خصبا للدراسة المقارنة نظرا لأهمية حمولاتها الثقافية و الفكرية، و الاجتماعية، و كذا الدينية فالصورة تقربنا من حقيقة الآخر، و تعمق وعينا بالذات.

2 تعدد وسائل تلقي الصورة بتعدد وسائط الاتصال و التثاقف بين الأنا و الآخر كـــ: التجارة، و الحروب، و الاستشراق، و الترجمة و الرحلات التي كانت ذات أهمية بالغة في نقل صورة الآخر بكل تفاصيلها .

3 تعدد التأويلات و القراءات التي تصاحب فهم الآخر. إلا أننا يمكن أن نجمل أهم هذه القراءات في قراءتين أساسيتين: القراءة الإيجابية و القراءة السلبية.

4 تنوعت الأهداف التي دفعت الرحالة – نماذج الدراسة– إلى القيام برحلاتهم؛ فكانت إما أهداف علمية أو سياسية، دينية، تجاريةٍ...

5 كانت أهداف الرحالة الذين زاروا بيت المقدس مثل: الراهب " **دانيال Daniel**" " **سايولف Sailauf** "... في القرنين السادس عشر و السابع عشر دينية محضة باعتبار القدس مركز لجميع الديانات السماوية، و قد جسدت هذه الرحلات التعصب الذي يحكم علاقة الأنا بالآخر بسبب الحروب الصليبية التي كان لها أثرا بالغا في علاقة الأنا بالآخر إذ ظلت العلاقة بينهما حتى و إن كانت عادية

إلا أنها تخفي بين طياتها الكثير من التعصب و الكراهية و الحقد بسبب المآسي و الدمار الذي خلفته هذه الحروب .

6 قدمت النصوص الرحلية الأوروبية لـــ: ،" **الليدي آن بلنت Lady anne blunt**"، " **جيرا ردي نرفال Gérard de Nerval** "، " **كزانتسكيس Kazantzakis**"، "**ج.أو.هابنسترايت J.E Hebenstreit.** "،"**موبسان Maupassant**"... صورة عامة عن مظاهر الحياة في المشرق، و المغرب لتغطي جميع أنماط الحياة المتنوعة : الاجتماعية، و الاقتصادية، و الدينية و الإثنوغرافية... مما ساعدنا على استكشاف مظاهر حياة الآخر العربي في نظر الأوروبيين كصورة الآخر الشريف، و الملتزم لـــ: "**موبسان Maupassant**"، و صورة المرأة كآخر مدنس لـــ: " **كزانتسكيس Kazantzakis**" ، و صورة الآخر المحروم دينيا، و اجتماعيا لـــ: "**بيرتونBurton**"، و صورة الآخر المعادي لليهود لـــ: "**شارل دوفوكو . Charles de Foucauld**" ،... و قد تجسدت هذه الصور في جوانبها الايجابية كما ارتبطت بجوانب سلبية انطلاقا من مرجعيات صاغتها نزعة التعالي و المركزية التي جسدت الآخر كتابع و مهمش و سلبي.

7 زار شبه الجزيرة العربية عدد كبير من الرحالة الأوروبيين مثل: "**تيبور Carsten Niebuhr** ،"**جيفورد بلغريف Gifford Palgrave** "، "**لويس بلي Lewis Pelly**" ...و قد اهتموا بتصوير الآخر بكل تفاصيله حيث تراوحت صورة الآخر بين التسامح و العداء.

8 كان اهتمام الرحالة الفرنسيين أمثال: " **فولني Volney**"، "**بول لوكاس paul Lucas**"، " **جاك فيلوت Jacques villotte**"... ببلاد الشام كبيرا مقارنة مع بقية الرحالة الأوروبيين.

9 -مثلت مصر قبلة مهمة للرحالة الأوروبيين باعتبارها مهدا للحضارات القديمة و قد تجلت صورة الآخر المصري في الكتابات الرحلية الأوروبية المتنوعة المرجعيات في أغلب النصوص في صورة إيجابية يمكن إجمالها فيما يلي:

– تعاطف الرحالة مع الطبقات الدنيا المحرومة اجتماعيا.

– إعجاب " **جيرار دي نرفال Gérard de Nerval** " بالمكانة السامية التي منحها الإسلام للمرأة معلنا رفضه لكل تلك الأفكار الجاهزة و الصور النمطية التي تروجها أوروبا عن الإسلام، و المسلمين، كما أبدى الرحالة إعجابهم بعمران المنطقة، و تسامح، و كرم الآخر المصري كما ظهر ذلك جليا في نصوص "**إميليا إدواردزAmelia Edwards**"...

10 -تجلت الصور السلبية للأخر المصري في بعض النصوص الرحلية التي كانت منبثقة عن نظرة استعلائية انطلاقا من العرق و الدين لإشباع غاياتها التي تضمر الرغبة في التمركز مشوهة للآخر الشرقي وهي صورة نمطية دونية مندسة في اللاوعي الجمعي الأوروبي كما يظهر ذلك عند "**بيرتون**" الذي وصف المسلم في شهر رمضان بالعنيف، و " **جوزيف بيتس** " الذي وصف المسلم بالمحتال و الغشاش.

11 -غلب على الرحلة إلى المغرب العربي أهدافا ذات طابع سياسي، و عسكري حيث تمت هذه الرحلات بتموين من طرف القوى الامبريالية نظرا لأهمية بلدان شمال إفريقيا الإستراتيجية و التي تعد مكسبا مهما بالنسبة لهم.

12 -أغلب الرحالة الذين زاروا المغرب العربي ألمان.

13 -تمظهر الآخر في المغربي العربي في عدة صور وفقا لمرجعيات الأنا الأوروبية. حيث صور الرحالة الألمان الشعب التونسي باللبق، و المتسامح المسالم. مقارنة مع باقي شعوب المنطقة الذين وصفوا بأبشع الصفات. و هذا ما

ثبت في رحلات كل من: "**إيفالد.Evald** "و " **هاينريش بارت .Heinrich Barth**"
و كذا " **ج.أو.هابنسترايت.J.E Hebenstreit** "...

14 بينت النصوص الرحلية – نماذج الدراسة– تضامن سكان بلدان المغرب العربي و تآزرهم ، و هذا ما استدعى حذر الأنا الأوروبي من الآخر العربي و تخوفه منه نتيجة الاحتلال الإسباني لوهران و المرسى الكبير سنة 1732.فقد اضطر الألماني "**ج.أو.هابنسترايت**" إلى تحديد تحركاته و إنهاء مهمته بـــ: لبيبا خشية أن يثأر العرب منه .

15 -تعصب بعض الرحالة لاتجاههم العقائدي مثلما ظهر في النصوص الرحلية للمبشر "**إيفالد.Evald** " ، و اليهودي " **شارل دوفوكو.Charles de Foucauld** " اللذان كانا يهدفان إلى تشويه كل ما هو إسلامي في كثير من المواقف و قد بدا ذلك جليا في الصور التي تمثل بها الآخر الليبي و التونسي و المغربي حيث ظهر الآخر معاديا لليهود و متعصب دينيا.

16 -كانت الجزائر _ أنموذج الدراسة– قبلة لعدد هائل من الرحالة خصوصا الألمان و الفرنسيين الذين تواجدوا بالمنطقة لأسباب استعمارية امبريالية توسعية .

17 -جسدت النصوص الرحلية الأوروبية – نماذج الدراسة– الآخر الجزائري في عدة صور سلبية و أخرى إيجابية تمثلت فيما يأتي:

– **أولا: الايجابية:** ظهر الآخر الجزائري في صورة المتسامح، الشهم، المقاوم المستقل،المتدين، و المتقن لعمله، و كذا الوفي الحافظ للأمانات، المتعلم المناضل،المضياف، المتمسك بهويته، و خصوصيته في العمران، و اللباس... أما المرأة فقد ظهرت في صورة العفيفة، و المتدينة، و الساحرة بأنوثتها سحر الشرق، و جاذبيته.

– **ثانيا: السلبية:** ظهر الآخر الجزائري في النصوص الرحلية الأوروبية في صور سلبية كالماكر المتهرب من تسديد الجباية و الديون، وقد بدا الولاء

للامبريالية واضحا في الصورة المشوهة التي مثل بها "**تيوفيل غوتييه**" "**الأمير عبد القادر** " إرضاء لمجموعة من الأنساق الثقافية المضمرة في فكر الرحالة عن الآخر السلبي، و الهامشي و التابع.

- و مجمل القول فقد صاغت النصوص الرحلية – نماذج الدراسة– روايات و صور خضعت أغلبها لمرجعيات و ثقافة الأنا على حساب الآخر، حيث خلف التباين الفكري، و الجغرافي، و الديني، و التاريخي بين الأنا و الآخر نوعا من التعصب في الرؤية انطلاقا من عقدة التفوق و المركزية عند الأنا فتصورات الرحالة الأوروبيين عن الآخر العربي كانت خاضعة لصور نمطية مترسبة في الذاكرة الجمعية للمجتمع الأوروبي مما يلغي الإيمان بالتعدد الفكري، و الثقافي، و الديني...انطلاقا من كون الاختلاف لا يولد في كل الحالات الصراع، و التضاد بين الأنا، و الآخر بل يمكن أن يكون مصدرا للوحدة و الائتلاف مما يفتح هذا البحث على مساءلات نقدية أخرى تغري المتلقي بالدراسة، و التحليل.

الملخـــــص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن أهمية أدب الرحلة في تجسيد صورة الآخر انطلاقا من كون هذه النصوص الرحلية منبعا للمعلومات، و الأخبار و المشاهدات التي يرصدها الرحالة عن الشعوب.إذ تكمن أهمية الرحلة في تشكيل الصور المتعددة عن الآخر استنادا إلى مرجعيات تنوعت بين السياسية، و الدينية العرقية، و الأيديولوجية، و الثقافية... و هذا ما بدا واضحا في الرحلات الأوروبية إلى الشرق، فقد تجلت صورة الآخر العربي _ المصري و الجزائري _ على وجه الخصوص في النصوص الرحلية الأوروبية في صور إيجابية، و أخرى سلبية حيث ظهر في صور ايجابية انطلاقا من ارتباط الرحلات بأهداف سياحية، و استكشافية و كذا علمية... أما الصور السلبية فقد جسدتها الرحلات المرتبطة بالجوانب السياسية الاستعمارية، و الدينية...

Résumé:

Cette étude vise à révéler l'importance de récit de voyage dans la réalisation de l’image de l'autre Partant du fait que ces textes source de l'information, des nouvelles et Vues sur les peuples. Il se trouve l'importance de Voyage dans la formation d'images multiples de l'autre sur la base de références allant de la politique, ethnique, religieuse et idéologique, culturel et ... Cela est apparu clairement dans les Voyages de récits de voyageurs européens à l’ Orient, a démontré l'image de l’autre Arabe… notamment _l'Algérie et l’ Égypte_ en particulier dans le texte de voyage européens en des images positives et d'autres négatives Où il est apparu dans les images positives des voyages touristiques lien avec les objectifs de l'exploration, et, ainsi que scientifique et ... Les images négatives ont incarné les voyages liés aux aspects politiques , coloniale et religieuse ...

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع:

القرآن الكريم: رواية ورش عن نافع.

أولا: المصـــــادر:

1 - أحمد منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، دار التنوير، الجزائر، ط1، 2013.

2 - إميليا إدواردز، رحلة الألف ميل، تر:إبراهيم سلامة إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط،1997.

3 - إيفالد، رحلة المبشر إيفالد من تونس إلى ليبا في سنة 1835، تر: منير الفندري، بيت الحكمة، قرطاج تونس، دط،1991.

4 - بيير جوردا، الرحلة إلى الشرق: رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر، تر: مي عبد الكريم و علي بدر، الأهالي للطباعة و النشر و التوزيع، دمشق،ط1،2000.

5 - ج.أو.هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر و تونس و طرابلس، تر: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، دط، دت.

6 - جوزيف بيتس، رحلة جوزيف بيتس (الحاج يوسف) إلى مصر و مكة المكرمة و المدينة المنورة، تر: عبد الرحمان عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، دط، 1995.

7 - جيرار دي نرفال، رحلة إلى الشرق، تر: كوثر عبد السلام البحيرى،ج3، دار الكتاب العربي للنشر و الطباعة، دط،1969.

8 - جيرار دي نرفال، رحلة إلى الشرق، تر: كوثر عبد السلام البحيرى، ج4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط،1988.

9 - رتشارد.بيرتون، رحلة بيرتون إلى مصر و الحجاز، تر: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، دط،1994.

10 - ردولف، رحلة الأمير ردولف إلى الشرق(مصر و القدس)، تر: عبد الله عبد الرحمان الشخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،دط، ،1995.

11 - عوض البادي، الرحالة لأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف و وادي سرحان، 1845-1922، ج1، الدار العربية للموسوعات، الرياض، ط2، 2002.

12 - غي دو موباسان، رحلة إلى الجزائر " إلى بلاد الشمس"، تر: نادية عمر صبري، دار ورد للطباعة و النشر، دط،2007.

13 - ف.شارل دو فوكو، التعرف على المغرب 1883-1884، تر: المختار بلعربي، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1999.

14 - لويس بلي، رحلة إلى الرياض، تر: عبد الرحمان عبد الله الشيخ و عويضة بن متيريك حامد الجهني، مطابع جامعة الملك سعود، ط1، 1991.

15 - ماركوبولو،رحلات ماركوبولو، تر: عبد العزيز جاويد، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، ، 1995.

16 - نيكوس كازنتزاكيس،رحلة إلى مصر الوادي و سيناء،تر:محمد الظاهر.مينة سمارة،سلسلة كتاب أدب و نقد،القاهرة،ط1991،1.

17 - هاينريش بارت، سبع رسائل مخطوطة ل: هاينريش بارت عن رحلته إلى تونس 1845-1846 ، تح و تر: منير الفندري، بيت الحكمة، تونس، دط،1987

ثانيـــا : المـــراجع العـــربية:

18 - أمينة رشيد، الأدب المقارن و الدراسات المعاصرة لنظرية الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط1، 2011.

19 - حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط2، 1983.

20 - حسين محمود فهيم، أدب الرحلات، عالم المعرف، الكويت، د.ط، 1989.

21 - رشاد المدني، بيت المقدس في عيون الرحالة المسلمين و الأجانب في القرنين الخامس و السادس الهجريين، الجامعة الإسلامية، غزة ، 2011.

22 - زكي ميلاد وتركي علي الربيعو ، الإسلام والغرب: الحاضر والمستقبل،دار الفكر المعاصر ، بيروت لبنان، ط2، 2001.

23 - شعيب حليفى، الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2006.

24 – سالم يفوت، حفريات الاستشراق (في نقد العقل الاستشراقي)، المركز الثقافي العربي،الرباط، ط1، 1989.
25 – الساوري بوشعيب، الرحلة و النسق: دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء. المغرب، ط1، 2007.
26 – سعيد بنسعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة،رؤية للنشر و التوزيع القاهرة، ط1، 2012.
27 – ضياء الدين سارادارا،الاستشراق: صورة الشرق في الآداب و المعارف الغربية، تر: فخري صالح، هيئة أبوضبي للسياحة و الثقافة، الإمارات، ط1، 2012.
28 – الطاهر أحمد الزاوي، معجم البلدان الليبية، مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، ط1، 1968.
29 – الطاهر أحمد الزاوي، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد الترك، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1970.
30 – طه ندا، لأدب المقارن، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، د.ط، 1991.
31 – عبد الله إبراهيم، المركزية الإسلامية، الدار العربية للعلوم، بيروت، دط،2010.
32 – عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ، دط، 2010.
33 – عبود عبده، هجرة النصوص: دراسات في الترجمة الأدبية و الإنتاج التبادل الثقافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1995.
34 – غادة السمان، عيناك قدري، منشورات غادة السمان، بيروت، ط1، 1962.
35 – كريم بجيت، الرحلة و صورة الآخر: قراءات في نصوص الرحالة الأوروبيين إلى المغرب، دار الأمان، الرباط، ط1، 2013.
36 – محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، دار الساقي، بيروت، ط1، 2010.
37 – ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1،2010.
38 – ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2000.
39 – محمد شوقي الزين، الذات والآخر: تأملات معاصرة في العقل و السياسة و الواقع، منشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2012.
40 – محمد عابد الجابري،الإسلام و الغرب (الأنا و الآخر) الكتاب الأول، الشبكة العربية للأبحاث و النشر، بيروت، ط1، 2009.

41 – محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ط3،1983.

42 – محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت،ط9،1987.

43 – محمد فاروق النبهان، الاستشراق: تعريفه مدارسه وآثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم الثقافة، ايسيسكو، الرباط، دط، 2012.

44 – محمد مؤنس أحمد عوض، الرحالة الأوروبيون في مملكة بلاد المقدس الصليبية 1099–1187،مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1،

45 – محمود حمدي زقزوق، الاستشراق و الخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف،القاهرة، د.ط، د.ت.

46 – مي عبد الكريم محمود، تائهون في صحراء الإسلام: صورة الصحراء العربية في كتابات الرحالة و المستشرقين الفرنسيين، الأهالي للتوزيع و النشر، دمشق، ط1، 2003.

47 – ياسمين فيدوح، إشكالية الترجمة في الأدب المقارن، دار صفحات للدراسات والنشر ،دمشق، ط1 ،2009.

ثالثـــا: المـــراجع المتـــرجمة:

48 – إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط1، 1996.

49 – بير برونيل وآخرون : ما الأدب المقارن، تر: عبد المجيد حنون وآخرون ، منشورات مخبر الأدب العام و المقارن جامعة باجي مختار، عنابة ، الجزائر،2005.

50 – بيير برونيل و آخرون ، الوجيز في الأدب المقارن، تر: غسان السيد، مكتبة الأسد، دمشق، دط،1999.

51 – تيري هينتش، الشرق الخيالي و رؤية الآخر: صورة الشرق في المخيال الغربي الرؤية السياسية الغربية للشرق المتوسط، تر: مي عبد الكريم محمود، دار المدى للثقافة و النشر، ط1،2006.

52 – دانييل هنري باجو، الأدب المقارن، تر: غسان السيد، منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 1997.

53 – رنا قباني، أساطير أوروبا عن الشّرق: لَفــقْ تَسُــدْ، تر: صباح قباني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق، ط1، 1988.

54 - صاموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات و إعادة بناء النظام العالمي، تر: مالك عديد أو شهيوة و محمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر و التوزيع و الإعلام، ليبيا، ط1،1999.

رابعا: المجلات و الدوريات:

55 - سليمة لوكام، الجزائر في كتابات "جي دو موباسان": الأرض و العرق و الدين، مجلة العربي، العدد: 642، ماي 2012.

56 - زياد العودة، مجلة الآداب العالمية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 152، خريف 2012 ، السنة السابعة و الثلاثون.

57 - عبد العليم محمد، مجلة العربي، الأحد 1 ديسمبر 2002 / العدد 529 .

58 - ماجدة حمود، صورة الشرق لدى هرمان هيسه، مجلة دمشق، المجلد 19(1+2)،2003.

59 - هادي نظري منظم و آخرون، صورة ما ياكوفسكي في شعر عبد الوهاب البياتي و و شيركو بيكهس، إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)، السنة الثانية – العدد الثامن– 2012.

خامسا: مواقع الأنترنات:

60 - http//:www.alukah.net/Culture/

61 - https://ar.wikipedia.org/

62 - http://www.neelwafurat.com/

63 - http://alhayat.com/

64 - http://ribatalkoutoub.com/

65 - http://www.al-fadjr.com/

66 - http://www.albayan.a/

67 - http://www.djazairnews.info

68 - http: // www.echihab.com/

69 - http://www.alrawashed.com/

سادسا: منشورات أخرى:

70 - عبد الرحمن البيطار ، رحلات الفرنسيين إلى الشام وآثارها في المثاقفة في العصر الحديث، بحث مقدم للندوة التي يقيمها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، دمشق، 2008

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

- مقدمة.....أ.ب.ج.د

- **المدخل: الصورولوجيا و الرحـــــــــلة.**

تمهيد.....06

- **أولا: البدايات الأولى لدراسة صورة الآخر في الأدب المقارن**..... 07

- **ثانيا: مفهوم الصورة في الأدب المقارن** 09

- **ثالثا: حالات تصوير الآخر**.....11

أ. القراءة الإيجابية.....12

ب. القراءة السلبية.....13

- **رابعا: وسائل تلقي صورة الآخر**.....15

1 - الحروب و الاستعمار.....16

2 - الاستشراق.....17

3 - الترجمة.....21

4 - أدب الرحلة 23

الفصل الأول: المشرق في مرآة الرحالة الأوروبيين _مصر أنموذجا-

- **تمهيد** 28

- **أولا: صورة المشرق في عيون الرحالة الأوروبيين**.....29

1 - الرحلة إلى بيت المقدس و الصراع مع الآخر.....29

2 - الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية والآخر بين التسامح و العداء..... 32

3 - الرحلة إلى بلاد الشام و الآخر المستعمَر.....37

- **ثانيا: صورة مصر في مرآة الرحالة الأوروبيين**.....38

1 - **رحلة بيرتون. Butron** 39

أ. صورة الآخر المقهور اجتماعيا.....39

ب. صورة الآخر الديني المحروم 40

2 - **رحلة جيرا ردي نرفال. Gérard de Nerval**.....41

أ. صورة المرأة المصرية.....41

ب.صورة الآخر و ملامح الهوية.....43

ت.صورة الآخر اجتماعيا.....43

3 - **رحلة إمليا إدواردز. Amelia Edwards**.....44

أ. سحر الشرق و الآخر الملتزم.....45

ب.صورة المدينة بين جاذبية العمران الإسلامي و سحر الآثار الفرعونية..... 47

4 - **رحلة الأمير رودلف. Prince Rudolf**.....47

أ. الآخر المختلف اثنيا.....48

ب.صورة الآخر المتماهي مع الأنا.....48

5 - **رحلة نيكوس كازنتزاكيس. Nikos Kazantzakis**.....49

أ. صورة الآخر المقموع/ التابع.....50

ب.صورة المرأة كآخر مدنس.....52

ت.صورة الآخر المتحرر اقتصاديا.....53

6 - **جوزيف بيتس. Joseph Bates**.....55

أ. صورة الآخر غير الأخلاقي.....55

ب.صورة الآخر العادل.....56

الفصل الثاني: المغرب في مرآة الرحالة الأوروبيين – الجزائر أنموذجا–

– **تمهيد**.....59

– **أولا: صورة المغرب العربي في عيون الرحالة أوروبيين:**

1 -الرحالة إلى تونس و الصورة الأخلاقية للآخر.....60

2 -الرحالة إلى ليبـــــيا و صورة الآخر المتمرد.....65

3 -الرحلة إلى المغرب الأقصى و صورة الآخر المعادي لليهود.....67

– **ثانيا: صورة الآخر الجزائري في مرآة الرحالة الأوروبيين**.....69

1 – **رحلة ج.أو.هابنسترايت.J.E Hebenstreit** 71

أ. صورة الآخر والخصوصية الدينية.....71

ب.صورة الآخر الماكـــــر/ المتمرد..... 74

ت.صورة الآخر المقاوم/ المتحدّي.....75

2 – **هاينريش بارت.Heinrich Barth**.....76

أ. الأنا الكولونيالي و الآخر النضالي.....77

3 – **تيوفيل غوتييه Théophile Gautier**.....77

أ. صورة الآخر والخصوصية الشرقية.....78

ب.صورة المرأة القسنطينية و سحر الأنوثة.....78

ت.صورة الآخر المجازي.....79

4 – **ألفونس دودي.Alphonse Dodi** 80

أ. صورة الآخر المحروم اجتماعيا.....80

ب.الأنا الأوروبي وتشويه الآخر.....81

ت.صورة الآخر المضياف/ الكريم.....82

5 – **غي دو موبسانGuy de Maupassant** 83

أ.صورة الآخر الميزابي الشريف والملتزم.....83

ب.صورة الآخر الميزابي المتعلّم.....84
ت.صورة الآخر الميزابي المتفوق.....84
ث.صورة الآخر وجاذبية الطبيعة.....85
6 - **هاينريش فون مالتسان.Heinrich von Maletsan** 86
أ. صورة الآخر و روح الانتماء.....87
ب.صورة الآخر و سحر العمران.....88
ت.صورة المرأة القبائلية المناضلة/ الصامدة.....89
- **الخاتمة**..... 92
- **الملخص**.....97
- **قائمة المصادر و المراجع**.....99
- **فهرس الموضوعات**.....103